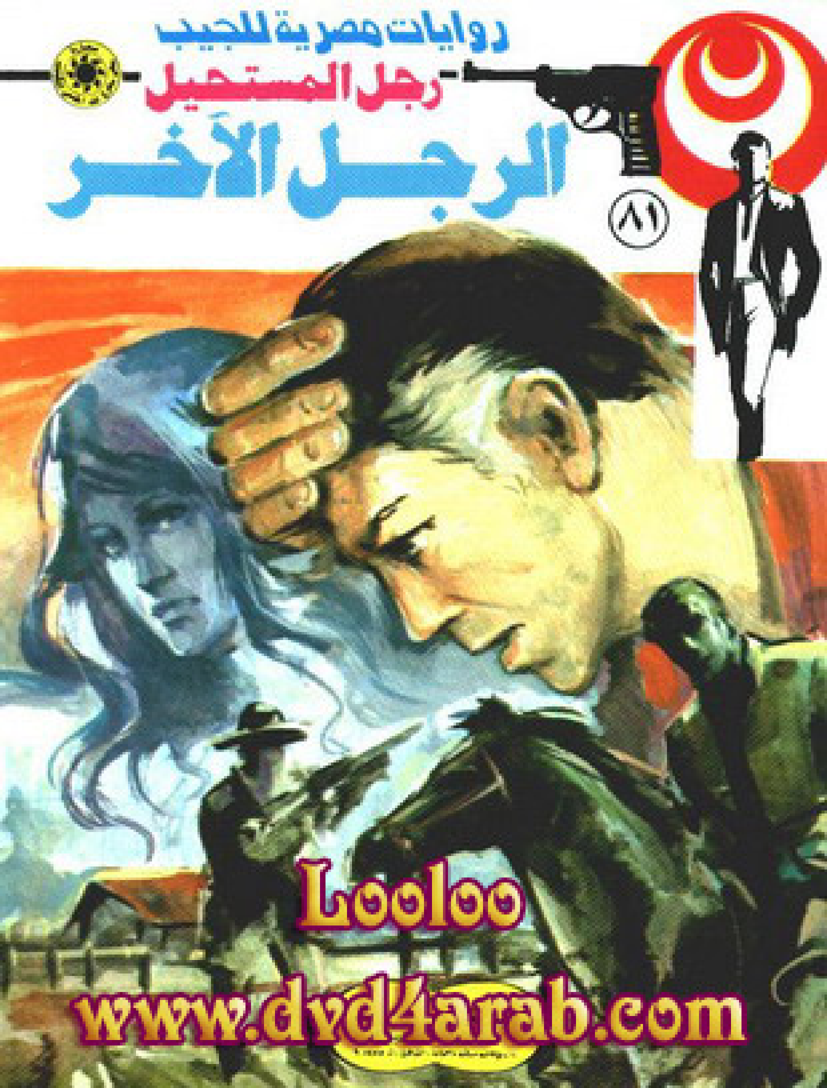

روايات مصرية للجيب
رجل المستحيل
الرجل الآخر
٨١
Looloo
www.dvd4arab.com

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

١ — البديل ..

غلّف الظلام تمامًا تلك القاعة الواسعة ، المحاطة بجدران من الزجاج المضاد للرصاص ، فى قبو مبنى المخابرات العامة المصرية ، وبدت لأعين المراقبين خارجها ، وكأنما هى خالية ساكنة صامتة ، على الرغم من ثقتهم بوجود رجل يتحرّك داخلها بخفّة قِطّ حذر ، حتى انتصب فيها فجأة تمثال يشبه رجلًا يمسك مسدسه ، مع وميض أشبه بفلاش تصوير سريع ، أعقبه صوت رصاصة مكتومة ، انطلقت من مسدس مزوّد بكاتم للصوت ، التمع وميضها من مصدرها ، قبل أن يتناهى إلى مسامع المراقبين صوت ارتطامها بالتمثال ، ثم أعقب ذلك انتصاب تمثالين آخرين ، انطلقت رصاصات مسدسيهما نحو مصدر الرصاصة الأولى ، إلا أن رصاصتين مكتومتين أصابتهما من مصدر آخر ، فسقطا يلحقان بزميلهما ، فغمغم مدير المخابرات العامة ، الذى يراقب ما يحدث من الخارج :

— لا بأس .

ابتسم مساعده ابتسامة واسعة ، لم يسمح لها الظلام بالظهور على نحو واضح ، وهو يقول :

— بل هو رائع فى الواقع ياسيّدى ، لقد اجتاز كل اختبارات الرماية بنجاح يبلغ سبعة وتسعين فى المائة ، بالإضافة إلى إجادته التامة لمعظم رياضات الدفاع عن النفس ، وخمس لغات حيّة ، و .....

قاطعه المدير :

— لابأس .. لابأس .

ثم ضغط زرًّا فى مسند مقعده ، فأضيئت الحجرة الزجاجية المظلمة ، وبدا داخلها شاب وسيم ، مفتول العضلات ، يرتدى قميصًا خفيفًا ، على الرغم من برودة الجوّ فى هذا الوقت من فصل الشتاء ، وترتسم على شفتيه ابتسامة واثقة مزهوّة ، لنجاحه فى اجتياز الاختبارات حتى نهايتها ، وتطلّعت عيناه إلى مدير المخابرات ، وهو ينهض من مقعده ، ويشير إليه بسبّابته ، ثم اتجه نحو باب القاعة الزجاجية ، وفتحه وهو يدسّ مسدّسه فى غمده ، ومساعد المدير يقول فى حماس :

— إنه أيضًا يجيد قيادة معظم المركبات : البريّة والبحريّة والجويّة ، ويجيد التنكّر على نحو جيّد ، و .....

زفر المدير فى أسًى ، وهو يقول :

— ولكنه لن يبلغ حتى نصف مهاراته هو .

عقد مساعده حاجبيه ، وهو يقول فى ضيق :

— اسمح لى ياسيّدى .. إننى لست ممن يعشقون العيش مع ذكريات الماضى .

التفت إليه المدير فى صمت ، فتابع المساعد فى شىء من العصبيّة :

— عجلة الحياة لن تتوقّف ، ومخابراتنا تحتاج دومًا إلى رجل متميّز ، لتلك المهمّات التى لا تصلح إلا لرجل واحد ، وأنا أعلم كما يعلم الآخرون أننا كنّا نملك فيما مضى أفضل رجل فى العالم ، فى هذا المجال ، ولكنه لقىَ مصرعه فى (المكسيك) منذ ما يزيد على العام ، وليس من المنطقى أن يبقى مكانه شاغرًا ، لمجرّد أننا نعجز عن نسيان عبقريته وموهبته ومهاراته .

ثم لوّح بيده تجاه الشاب الوسيم ، الذى وقف صامتًا ، واستطرد :

— ها هو ذا البديل .. شاب يملك مهارات مدهشة ، بالنسبة لعمره ، على الرغم من أنه لم يحصل على نفس تلك الفرصة ، التى حصل عليها المعجزة السابق ، بأن يبدأ مرانه فى الثالثة من عمره .. ها هو ذا شاب يفوق أقرانه ، ويستحق عن جدارة لقب (ن ــ ٢) .

زفر المدير مرّة أخرى ، وألقى نظرة طويلة على الشاب الوسيم ، وهو يقول :

ـــ أعلم ذلك .. ولكننى لا أستطيع نسيان (أدهم صبرى) فى سهولة .. ولو أنك عملت معه ، مثلما فعلت أنا ، ما اختلف شعورك كثيرًا .

ثم قال للشاب :

ـــ تقدم يا فتى .

اتجه الشاب إليه فى خطوات قوية واثقة ، وقال وابتسامته لم تفارق شفتيه بعد :

ـــ الرائد (حسام) فى خدمتك يا سيّدى .

أومأ المدير برأسه ، على نحو بدا وكأنه لا يعنى شيئًا ، ثم قال :

ـــ أنت الآن ثانى رجل يحمل حرف (النون) فى كوده السّرّى ، بالنسبة لإدارتنا ، بعد رحيل (ن ـــ ١) .. أنت منذ هذه اللحظة تحمل لقب (ن ـــ ٢) .

وزفر مرّة ثالثة ، قبل أن يضيف :

ـــ أنت بديل (رجل المستحيل) .

* * *

أوقفت (منى توفيق) سيارتها الصغيرة فى المكان المخصّص لها ، فى فناء مبنى المخابرات العامة ، وهبطت منها فى بطء ، وهى ترتدى معطف مطر أنيقًا ، وبدا ذلك الحزن المرتسم على وجهها وكأنما انحفر مع ملامحها ، فصار جزءًا من تكوينها ، وهى تدسّ يديها الرقيقتين فى جيبى معطفها ، وتتجه إلى المبنى ، ثم تنحرف داخله عَبْر ممرّ طويل ، قادها إلى حجرة تحمل اسم : « حجرة المعلومات الخاصة » ، ودقّت بابها فى هدوء ، ثم دفعت الباب ، ودلفت إلى الحجرة ، وقالت للرجل الجالس على المكتب المواجه للباب ، أمام جهاز كمبيوتر :

ـــ صباح الخير يا (صبحى) .

قال الرجل دون أن يرفع عينيه إليها ، وكأنما اعتاد الأمر :

ـــ صباح الخير يا سيادة الرائد .. تفضّل .

جلست على المقعد المجاور له ، وحملت عيناها مزيجًا من اللهفة والقلق والترقّب والخوف ، وهى تسأله :

ـــ هل من جديد ؟

رفع عينيه إليها فى بطء ، وارتسم فيهما شىء من الشفقة والعطف ، وهو يقول :

ـــ أتتوقّعين ذلك حقًا ؟

لوّحت بكفّها ، قائلة فى توتُّر :

ـــ ولِمَ لا ؟

تنهّد قائلاً :

ـــ أعلم أن فقدان من نحب أمر عسير شاق ياسيّدتى ، ولكنه واقع على الرغم من مرارته ، وعلينا أن نتقبّله صاغرين .

التمع الدمع فى عينيها ، وهى تقول بصوت متحشرج :

ـــ من يدرى ؟.. ربّما !..

قاطعها مُشفقًا :

ـــ ربّما ماذا ياسيادة الرائد .. لقد لَقِىَ سيادة المقدّم (أدهم صبرى) مصرعه منذ عام وثلاثة شهور كاملة ، فى انفجار مروّع ، لايُعقل أن تنجو منه حشرة واحدة ، ولقد التقط رجالنا صورة للجبل الذى كان داخله ، وقد تحوّل بعد الانفجار إلى كُومَة من التراب ، فكيف ينجو رجل من هذا بالله عليك(*) ؟

ترقرق الدمع فى عينيها ، وانحدرت دمعة ساخنة تلهب وجنتها ، وهى تغمغم :

ـــ إنك لاتعرف (أدهم) .

(*) راجع قصة (وكر الإرهاب) .. المغامرة رقم (٨٠) .

هتف :

ـــ كلنا كنّا نعرفه ، ونعرف أنه ليس بالرجل العادى ، ولكنه مجرّد بشر ، وكل البشر يموتون .. طال الزمن أم قصر .. كلهم .

انهمر الدمع من عينيها فى غزارة ، وهى تقول :

ـــ من الصعب أن أصدّق هذا أو أستوعبه .. لقد واجهت مع (أدهم) أهوالاً ، كان من الممكن أن يلقى مصرعه فى كل منها ألف مرّة ، ولكنه نجا ، و .....

قاطعها :

ـــ ولكل شىء نهاية .

ازداد انهمار الدموع من عينيها ، فأضاف فى خفوت :

ـــ إنها سُنّة الكون .

نهضت فى بطء ، وقد اكتسى وجهها كله بالدموع ، وهى تتمتم فى شحوب :

ـــ نعم .. إنها سُنّة الكَوْن .

تابعها بعينيه فى إشفاق ، وهىَ تغادر مكتبه مترنّحة كالسكرى ، وهزّ رأسه وهى تغلق الباب خلفها ، وقال فى عطف :

— ياله من حُبّ !

أما هى ، فقد بذلت أقصى جهدها ، تمنع نفسها من الانخراط فى بكاء ونحيب ، وهى تعبُر أروقة الإدارة ، إلا أنها عجزت تمامًا عن منع ذلك السيل من الدموع ، الذى سال على وجنتيها ، فأسرعت تطرق بابًا ، وتفتحه قبل أن يدعوها صاحبه للدخول ، ثم تدلف إلى الحجرة ، وتغلق الباب خلفها فى قوة ، قبل أن تلقِىَ جسدها على أقرب مقعد صادفها ، مع هتاف (قدرى) ، صاحب الحجرة :

— ماذا حدث ؟

لوَّحت بكفِّها ، وهى تشيح بوجهها ، قائلة :

— لا عليك .. لم يحدث شىء .

اقترب منها فى عطف ، وربَّت على كتفها فى حنان ، هامسًا :

— هل تذكُره ؟

تمتمت باكية :

— إننى لم أنسَهُ بعد .

ربَّت على كتفها مرَّة أخرى ، ومنع دموعه فى صعوبة ، وهو يجلس إلى جوارها ، قائلًا :

— ومن يمكن أن ينساه ؟ . لقد كان أعظم رجل عرفته فى حياتى كلها .. إننا لن نعوِّضه أبدًا .

قالت وهى تمسح دموعها :

— لست أدرى لماذا يصرُّ قلبى على أنه مايزال حيًّا يرزق ؟

قلَّب كفَّيه ، قائلًا فى يأس :

— كيف ؟.. وأين ؟.. لقد تشبَّث رجالنا بهذا الاحتمال كما تعلمين ، وانتشروا يجمعون المعلومات ، بعد انفجار وكر (بانشو سيلازر) ، ولكن حقيقة واحدة لم تُشِرْ إلى بقاء (أدهم) على قيد الحياة .. صدِّقينى إن حزنى يضارع حزنك ، ولكننى أعلم أنه مامن وسيلة لمعاندة القدر .. لقد لقِىَ (أدهم صبرى) مصرعه ، بعد حياة حافلة ، وبنهاية مشرِّفة ، ومن الضرورى أن نتقبَّل هذا ، على الرغم من حزننا وآلامنا ..

قاطعه صوت يقول فى هدوء :

— أليس كذلك ؟

أدار الاثنان عيونهما إلى الباب ، حيث يصدر الصوت ، وبدا لهما الرائد (حسام) بقامته الممشوقة ، وملامحه الوسيمة ، فغمغمت (منى) فى عدوانية واضحة :

— ماذا تريد ؟

دلف إلى الحجرة فى هدوء ، وأغلق بابها خلفه فى رفق ، ثم جذب مقعدًا ، وجلس فى مواجهة (منى) تمامًا ، وتطلّع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول :

ــ أريدك أنت .

قالت فى عصبيّة :

ــ أى قول سخيف هذا ؟

ابتسم فى هدوء ، وكأنما يقدّر مشاعرها ، وقال :

ــ الحق أنى كنت أبحث عنك .. لقد أخبرونى أنك كنت تسيرين فى الممرّ باكية ، ثم دلفت فجأة إلى حجرة عزيزنا (قدرى) ، فأتيت لأطمئن عليك .

قالت متوتّرة :

ــ شكرًا لك .

لزم (قدرى) الصمت تمامًا ، واكتفى بمراقبتهما ، فى حين تطلّع (حسام) إلى عينى (منى) لحظات فى صمت ، قبل أن يسألها فى هدوء :

ــ لماذا تكرهيننى يا (منى) ؟

هتفت :

ــ أكرهك ؟!.. ما الذى دفع تلك الفكرة الحمقاء فى رأسك ؟

أجابها فى هدوء :

ــ أنت .. أسلوبك العدوانى فى التعامل معى .. عصبيّتك الزائدة كلما التقينا أو تحدّثنا .. أيعود هذا إلى أننى بديله ؟

عقدت حاجبيها ، قائلة فى حِدّة :

ــ بديل مَنْ ؟

أجابها بنفس الهدوء :

ــ بديل (أدهم صبرى) .. بديل (رجل المستحيل) ..

هتفت فى ثورة :

ــ بديله ؟!.. أنت واهِمٌ لو تصوّرت هذا .. أنا وحدى أعلم مَنْ هو (أدهم صبرى) .. أنا وحدى رأيت كيف يعمل ، وكيف يسخر من الخطر والموت .. اسمع يا رجل .. لقد كان (أدهم صبرى) فلتة .. معجزة .. شىء لا يتكرّر أبدًا فى الجيل الواحد .

ابتسم وهو يقول :

ــ ومن أنكر هذا ؟

ثم مال نحوها ، مستطردًا :

ــ ولكنه لم يَعُد ينتمى إلى هذه الحياة ، ولست من هواة عبادة الأصنام .. لقد مات (أدهم) يا (منى) .. مات ولن يعود إلى عالمنا مرّة أخرى .. أتفهمين ؟

انحدرت دموعها مرّة أخرى ، وهى تهتف :

ـــ لا .. لا تقل هذا .

أمسك معصمها بغتة فى قوة ، قائلًا فى حزم :

ـــ لا فارق بين قوله أو كتمانه .. إنها الحقيقة يا (منى) .. الحقيقة التى ترفضين الاعتراف بها ..

غمغم (قدرى) فى حزن :

ـــ إنه على حق .

استدارت (منى) إليه فى حِدّة ، وهتفت مستنكرة :

ـــ حتى أنت !!

قلّب كفّيه ، قائلًا فى مرارة :

ـــ ومن يملك نفى القدر ؟

حدّقت فى وجهه الحزين لحظة ، ثم التفتت إلى (حسام) ، وقالت وهى تجذب معصمها من قبضته :

ـــ حسنًا .. هلّا تركت معصمى ؟

استجاب لمطلبها فى بساطة ، وظل يتطلّع إلى وجهها ، وهو يقول هامسًا :

ـــ أتعلمين أنك فاتنة حقًا ؟

رمقته بنظرة استنكار ، وهى تقول ساخطة :

ـــ ماذا تقول ؟

أجابها مبتسمًا :

ـــ أقول إنك جميلة حقًا ، ولكنك تدفنين جمالك هذا خلف ذلك القناع الكئيب ، حتى ليكاد الناظر إليك يخطئ فى تقدير عمرك الحقيقى ، ويضيف إليه عشر سنوات كاملة .

قالت فى عصبيّة :

ـــ اسمع يا (حسام) .. ماذا تريد منّى بالضبط ؟

أجابها وابتسامته تتسع :

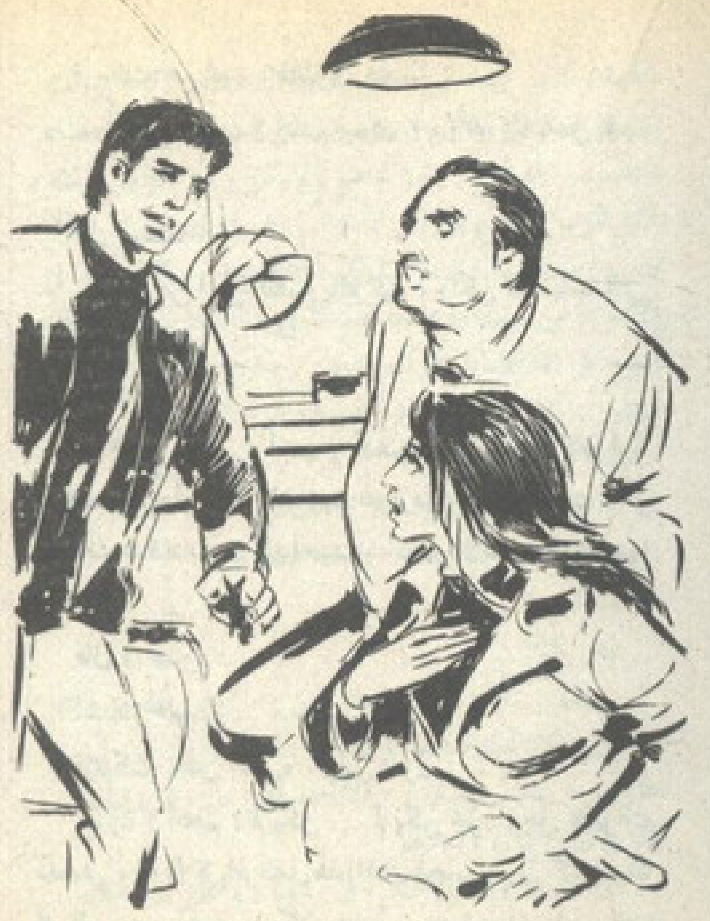
ـــ أريد أن أفعل ما لم يفعله (رجل المستحيل) .

وملأت ابتسامته وجهه كله ، وهو يضيف :

ـــ أن أتزوّجك .

* * *





مضت دقيقة كاملة ، و (قدرى) و (منى) يحدّقان فى وجه (حسام) ، وفى ابتسامته التى تملأ وجهه كله ..

٢ ـ معجـزة ..

مضت دقيقة كاملة ، و (قدرى) و (منى) يحدّقان فى وجه (حسام) ، وفى ابتسامته التى تملأ وجهه كله ، قبل أن تهتف (منى) مستنكرة :

ـ تتزوّجنى أنا ؟!

ضحك قائلًا :

ـ بالتأكيد .. إننى لن أتزوّج (قدرى) ، ولا يوجد سواكما معى هنا فى الحجرة ، لأوجّه إليه حديثى .

مضت لحظة أخرى من الصمت ، قبل أن تنفجر (منى) فى غضب مكرّرة :

ـ أتريد أن تتزوّجنى أنا ؟!

هزّ كتفيه ، وقال :

ـ ولِمَ لا ؟.. إننا متقاربان عمرًا ، وأنا أجدك فتاة مثالية ، ثم إننى قد اجتزت الاختبارات كلها بنجاح ، وأصبحت أحمل لقب (ن ـ ٢) .

هتفت مستنكرة :

ثم مالت هى نحوه ، قائلة فى عصبيَّة :

ــ أتظننى أحببت (أدهم صبرى) ؛ لأنه كان يحمل لقب (ن ــ ١) ؟

قال مبتسمًا :

ــ ليس من أجل اللَّقب بالتأكيد ، ولكن للأسباب التى منحته إيَّاه .

هتفت :

ــ خطأ .. إننى لم أحب (أدهم صبرى) لأنه كان قويًّا أو صنديدًا ، أو لأنه كان يجيد عدة مهارات وقُدرات ، أو يتحدَّث عدة لغات .. لقد أحببت (أدهم) لأسباب لن تفهمها أبدًا .

قال فى هدوء :

ــ اشرحيها لى .

ارتبكت بعض الشىء ، وهى تقول :

ــ إن (أدهم) لم يكن ... لم يكن مجرَّد رجل مخابرات مدهش ، يفوق كل أقرانه فى هذا المجال فحسب ، بل كان إنسانًا له قلب من ذهب .. كان يتحسَّس جراحك بلمسات

حانية ، بنفس اليد التى تحطِّم قبضتها العمالقة .. كان يمنحك بابتسامته الأمل والحب ، بنفس القدر الذى يمنح بها أعداءه الغضب والخوف .. إن (أدهم) لم يكن رجلًا عاديًّا .. لقد كان فارسًا ، يجمع بين كل الصفات الجميلة فى الدنيا .. كان يحب (مصر) ، بقدر ما يكره أعداءها .. كان لا يقتل إلا دفاعًا عن نفسه ، وعندما تحتِّم الأمور ذلك بلا بدائل .. كان يجمع كل المتناقضات فى آن واحد .. يكره ويحب .. يضرب ويحنو .. كان رجلًا فى زمن ندر فيه الرجال .

قال فى هدوء :

ــ ومن أدراك أنى لست كذلك ؟

تطلَّعت إليه لحظات فى حَيْرة ، متمتمة :

ــ أنت ؟!

نهض قائلًا :

ــ نعم .. أنا .. اسمعى يا (منى) .. إننى أطلب منك الزواج رسميًّا ، أمام صديقنا (قدرى) ، وأعلن لك أننى لست أغار من (أدهم صبرى) ، فلا أحد يغار من رجل ميت .. فكِّرى فى الأمر ، وسأنتظر .

قال كلماته وغادر الحجرة فى هدوء ، وأغلق بابها خلفه ، فأدارت (منى) عينيها إلى (قدرى) وهى تقول مستنكرة :

— يتزوّجنى أنا ؟!
تطلّع إليها (قدرى) لحظة مشفقًا ، ثم خفض عينيه ، قائلًا :
— ولِمَ لا ؟
هتفت :
— لِمَ لا ؟!.. سأخبرك أنا لِمَ لا يا (قدرى) .. لأننى مازلت أحبّ (أدهم صبرى) ، ولن أتزوّج سواه .. هل فهمت ؟

ونهضت من مقعدها فى حركة حادّة ، وجذبت الباب فى قوة ، مستطردة :
— ولتذهب كل نظريات الحياة إلى الجحيم .
وأغلقتِ الباب خلفها فى قوة ، فرفع (قدرى) عينيه إلى الباب المغلق ، وسمح أخيرًا لدمعة حبيسة أن تفرّ من معقلها ، وتسيل على وجنته ، وهو يغمغم :
— ومن ينساه يا بنيّتى ؟. من ينساه ؟
وتفجّرت دموعه بلا انقطاع ..

* * *

لم تدرِ (منى) كم عملت ، ولا كيف عملت فى ذلك اليوم ، ولكنها عندما ارتدت معطف المطر الخاص بها ، وهمّت

بالانصراف ، كانت المحال التجارية قد أغلقت أبوابها ، وكانت الشوارع قد خلت من المارة تقريبًا ، فاتجهت هى نحو سيارتها ، وحاولت إدارة محرّكها ، إلا أن السيارة لم تستجب مطلقًا ، فغمغمت هى فى حَنَق :
— ماذا أصاب هذه السيارة اللّعينة ؟!
فجأة ، باغتها صوت (حسام) ، وهو ينحنى عند نافذة السيارة ، قائلًا :
— ربما فرغت بطاريتها ، فلقد نسيت ضوءها مضاءً منذ الصباح .
التفتت إليه فى حَنَق ، وهى تقول :
— ولِمَ لَمْ تنبهّنى إلى ذلك فى الصباح ؟
ابتسم قائلًا :
— لقد نسيت .
جذبت مفتاح السيارة فى حدّة ، وألقته فى جيبها ، وهى تغادرها قائلة فى عصبيّة :
— لا بأس .. سأبحث عن واحدة من سيارات الأجرة .
أخرج مفاتيح سيارته من جيبه ، وهو يقول مبتسمًا :
— يمكننى أن أوصلك .. ومجانًا .

قالت في حدّة وحزم :

ـــ لا .

كانت تتوقّع منه إصرارًا ، إلا أنه اكتفى بهزّ كتفيه ، قائلًا :

ـــ كما يحلو لك .

ثم اتجه إلى سيارته ، وانطلق بها ، ملوّحًا بيده ، هاتفًا :

ـــ إلى الغد .

أختنقها أن يتركها وحدها هكذا ، وسط المطر ، إلا أنها لم تلبث أن غمغمت في صرامة :

ـــ ولو .

وغادرت المبنى على قدميها ، ودسّت كفّيها في جيبي معطفها ، وراحت تسير تحت الرّذاذ صامتة ..

وتذكّرت (أدهم) ..

إنها دومًا تتذكّره ..

لم تنسَهُ أبدًا ..

لم تفارق صورته رأسها لحظة واحدة ، منذ انفجر به وكر (بانشو) منذ عام وربع العام ..

ومن قلبها انحدرت دمعة ..

لقد كانت تحبّه حقًّا ..

تحبّه من أعمق أعماق روحها ..

وفي تلك اللحظة ، شعرت بندم هائل لأنها لم تتزوّجه ، وراحت تلوم نفسها على رفضها غير المنطقي له ، على الرغم من حبّها الشديد ..

ووجدت نفسها تتمتم باكية :

ـــ آه .. لو تعود !!

اختلطت دموعها بقطرات المطر ، والتصق شعرها المبتلّ بجبينها ورأسها ، وقد انشغلت بأفكارها وذكرياتها ، فراحت تقطع الطريق سائرة على غير هدًى ، حتى أيقظها بحة صوت أجشّ يقول :

ـــ إلى أين يا فاتنتي ؟

انتبهت فجأة إلى ستة شبان يعترضون طريقها ، ووجوههم تحمل ابتسامة خبيثة ، فقالت دون خوف :

ـــ ماذا تريد يا فتى ؟

أخرج من جيبه مُدية ذات نصل حادّ ، وراح يحرّكها أمام وجهها ، وهو يقول بتلك اللهجة الخبيثة القميئة :

ـــ خمّني ماذا نريد ؟

فجأة ، تحوّل كل الغضب المكبوت في قلبها تجاه هؤلاء الشبان ..

وفجأة انفجر ..

ولا ريب أن ذلك الشاب سيظل يخشى الفتيات طيلة عمره ، بعد أن تحركت قبضة (منى) فجأة ، بكل الغضب الراقد في أعماقها ، وغاصت في معدته كالقنبلة ، قبل أن تمسك قبضتها الأخرى معصمه ، وتلويه في حركة مباغتة ، فتجبره على إسقاط مُديته ، ثم ترفع قبضتها الأولى ، فتهشّم بها سِنّتين من أسنانه الأمامية ، في لكمة عنيفة ..

وتحفّز الشبان الخمسة الآخرون ، على الرغم من دهشتهم وخوفهم مما أصاب رفيقهم ، وهتفت بهم (منى) :

ـــ أتنشدون القتال ؟.. هيّا .. أروني قوتكم في مواجهة فتاة وحيدة .

تردّد الشبان الخمسة ، ما بين الخوف والغضب ، ثم شهَرَ كل منهم مُديته في حركة حادّة ، وراحوا يلتفّون حول (منى) ..

وهنا فقط أدركت (منى) أنها لن تربح المعركة ..

لن يمكنها أبدًا الفوز على خمسة شبان مسلحين بمفردها ..

وتراجعت في توتر ..

وفجأة ، برز من وسط الظلام شبح ممشوق القوام ، انقضّ على الشبان الخمسة كالصاعقة ..

وقبل أن يدرك الشبان الخمسة ما حدث ، كان فكّ أحدهم قد تحطّم بلكمة كالقنبلة ، وتهشّمت كل أسنان الثاني بأخرى ساحقة ، وكان الثالث يتلوّى من مطرقة حديدية غاصت في معدته ، والرابع ملقىً فاقد الوعي ، وقد استحال أنفه إلى كُومَة من اللّحم المفرى ، في حين نجح الخامس في أن يَشْهَرَ مُديته ، ولكن مهاجمه أطاح بالمُدْيَة بلكمة عنيفة ، ثم رفع قدمه ليركل وجه الشاب ركلة انفجرت بدويّ مكتوم ، قبل أن يسقط الشاب الأخير أرضًا ..

وخفق قلب (منى) في قوة ، وهي تحاول اختراق حجب الظلام ؛ لتميّز وجه مُنقذها ، وهي تغمغم :

ـــ (حسام) ؟!.. أهو أنت ؟!.. أهو أنت يا (حسام) ؟

ارتجف قلبها بين ضلوعها ، واتسعت عيناها في ذهول ، عندما أتاها صوت لم تسمعه منذ عام وربع العام ، يقول في حنان :

ـــ بل هو أنا يا (منى) .

وفي نفس اللحظة ، التمع البرق في السماء ، وسقط وميضه على وجه منقذها ، فشهقت (منى) في قوة ، وهتفت :

ـــ مستحيل !!

ثم سقطت فاقدة الوعي بين ذراعيه ..

بين ذراعي (أدهم صبري) ..

* * *

٣ — عودة البطل ..

فراغ رهيب يمتدُّ إلى ما لا نهاية ..

و (منى) تعدُو ..

أقدامها ثقيلة ..

ساقاها تغوصان فى بحر سميك خفىّ ..

وبكل الذعر فى أعماقها ، رأته أمامها ..

رأت (أدهم) ، يمدُّ لها يده ، ويهتف باسمها ..

ومدّت يدها إليه ..

ورأته يبتعد ..

جمعت كل لوْعتها فى لسانها ، وحاولت أن تصرخ باسمه ..

حاولت .. وحاولت ..

وهو يبتعد .. ويبتعد ..

وأخيرًا انطلق اسمه ..

صرخت باسمه بكل قواها ..

وهبّت جالسة على فراشها ، مع صوت أمها المشفق ، ويديها الحانيتين ، وهى تدفع كتفيها فى رفق ، محاولة إعادتها إلى الفراش ، متمتمة :

— رُوَيْدك يا بنيّتى .. رُوَيْدك .. كل شىء على ما يرام .. اطمئنى .

فتحت (منى) عينيها ، وتطلّعت فى مزيج من الدهشة والحَيْرة إلى حجرة نومها ، ثم دفنت وجهها بين كفَّيها ، وانفجرت ببكاء حار ، وهى تقول :

— نفس الحلم يا أمّاه .. نفس المشاهد .. أحلم بأننى أقع فى مأزق ، ثم يظهر هو فجأة ، كما كان يفعل طيلة عمرنا ، ويقضى على الأعداء ، ويحطّمهم بقبضته ، ثم يفتح ذراعيه لى ، فأسقط بينهما فاقدة الوعى .. نفس الحُلم يا أمّاه .

ضمّتها أمها إلى صدرها فى حنان ، وهى تغمغم :

— لن يعاودك هذا الحُلْم بَعْدُ يا بنيّتى .. كل شىء سيسير على ما يرام .. كل شىء .

انخرطت (منى) فى بكاء حار ، وهى تقول :

— ولكننى أشعر أنه على قيد الحياة يا أمّاه .. ما زال قلبى ينتظره .

ربّتت أمها على كتفها مشفقة ، وهى تتمتم :

— إنه كذلك يا بنيّتى .. إنه كذلك .

دفعت (منى) جسدها بعيدًا عن صدر أمها ، وهتفت :

— إذن فأنت تصدّقين مشاعرى أخيرًا يا أمّاه .. تصدّقين ما ينبض به قلبى .

غمغمت أمها ، والحَيْرة تملأ عينيها :

— لقد كانت مفاجأة مذهلة لى حقًا يا بنيتى ، ولكن .....

اتسعت عينا (منى) ، وأمسكت كتفى أمها فى قوة ، وهى تهتف :

— مفاجأة مذهلة ؟!.. ماذا تقصدين يا أمّاه ؟.. ماذا تعنين ؟

أتاها صوته الحنون الدافئ القوى ، من عند باب حجرتها ، وهو يقول :

— ترفّقى بأمّك يا (منى) .

أدارت عينيها ورأسها إليه فى حركة عنيفة ، كادت تقتلع عنقها من جذوره ، وحدّقت فى وجهه الذى يحجبه الظلام ، وارتجف صوتها مع ارتعادة جسدها ، وهى تغمغم :

— (أدهم) ؟!.. أهو أنت ؟!.. أهو أنت يا (أدهم) ؟!

تقدّم (أدهم) بضع خطوات ؛ ليسقط الضوء على وجهه ، وارتجف قلب (منى) بين ضلوعها فى فرح أسطورى ، وهى تتأمّل وسامته وابتسامته العذبة فى وجد ، قبل أن تسيل الدّموع من عينيها ، متمتمة :

— مستحيل !!.. لا ريب أنه حُلم .. حُلم جميل !!

قطع المسافة التى تفصله عنها بخطوة واحدة ، واحتضن كفّها الرقيقة براحتيه ، وهو يقول فى صوت ملؤه الدفء والحنان :

— بل هى حقيقة يا (منى) .. إنه أنا .. أنا (أدهم صبرى) ، بشحمه ولحمه ودمه وأعصابه .. هو أنا يا (منى) .

سالت الدموع من عينيها ، وهى تملأ بصرها بوجهه ، قائلة :

— أهو أنت حقًا ؟!.. يا إلهى !.. لقد كان قلبى على حق .. لم تكذبنى مشاعرى أبدًا . أنت على قيد الحياة .

ابتسم فى حنان ، قائلًا :

— لم يَحِن موعد فراقنا بعد يا عزيزتى .

انهمرت الدموع من عينى الأم ، وهى تراقب ذلك المشهد ، وقالت تحاول إخفاء ضعف أمومتها الغريزى :

— لا ريب أنك تحتاج إلى قدح من القهوة يا سيّد (أدهم) .

أجابها (أدهم) مبتسمًا :

— إننى أتوق إليه بالفعل .

أسرعت الأم تغادر الحجرة ، متعللة بإعداد القهوة ، فى حين همست (منى) فى سعادة :

ــ أين كنت ؟.. أين اختفيت طيلة عام وربع العام ؟

غمغم :

ــ إنها قصة طويلة .

هتفت فى لهفة :

ــ أين ذهبت بعد انفجار وكر (بانشو) ؟

ترك كفها فى رفق ، ونهض متجهًا إلى نافذة الحجرة ، وراح يتطلع منها إلى قطرات المطر ، التى تتساقط على الزجاج ، قبل أن يقول :

ــ إننى لم أفارق (المكسيك) يا (منى) .

هتفت فى دهشة :

ــ عجبًا !!.. لقد بحث عنك رجالنا فى كل شبر من .....

قاطعها :

ــ كنت فى بلدة صغيرة ، بالقرب من (كيوا وا) .

حدقت فيه لحظة فى دهشة ، ثم قالت :

ــ وماذا كنت تفعل هناك ؟

تنهد قائلًا :

ــ ألم أقل لك إنها قصة طويلة ؟

ران عليهما الصمت لحظات ، راحت هى خلالها تتأمله فى هيام وسعادة ، حتى وقعت عيناها على أصابع يده اليسرى ، فارتجف قلبها ، وتجمدت مشاعرها كلها ، وبدا صوتها بارتجافه أشبه بعقاب كهربى يخترق حائطًا من الخرسانة المسلحة ، وهى تقول :

ــ (أدهم) !.. هذه الدبلة فى إصبعك ؟!.

بدا لها صوته مُفعمًا بالأسف ، وهو يقول :

ــ لقد تزوجت .

هبط عليها الخبر كالصاعقة ، واتسعت عيناها فى ذهول ، وهى تقول فى مرارة قاتلة :

ــ تزوجت ؟! .. تزوجت مَنْ ؟!

اخترق الجواب قلبها كخنجر من نار ، عندما قال فى مرارة :

ــ تزوجت (سونيا) .. (سونيا جراهام) ..

* * *

مهلًا عزيزى القارئ ..

لا ريب أن كل هذا قد أربكك ..

ولكن المثل يقول : « يزول العجب ، إذا ما عُرف السبب » ..

ران عليهما الصمت لحظات ، راحت هى خلالها تتأمله فى هيام وسعادة ، حتى وقعت عيناها على أصابع يده اليسرى ..

والسبب يعود إلى فترة سابقة ..

إلى عام وربع العام من الماضى ..

إلى تلك اللحظة التى أقلعت فيها الهليوكوبتر التى تقلّ (منى) ، من وكر (بانشو سيلازر) فى صحراء المكسيك (*)..

فدعنا نعُد إلى تلك اللحظة ..

ولنبحث عن السبب من البداية ..

* * *



(*) راجع قصة (وكر الإرهاب) ... المغامرة رقم (٨٠) .

٤ — انفجــار ..

كانت لحظة قاسية عنيفة ..

كان الزمن يمضى فى سرعة ، نحو موعد انفجار ذلك التل ، الذى اتخذه (بانشو سيلازر) وكرًا له ، وكانت الهليوكوبتر تبتعد بـ(منى) والسفير المصرى ، و (بانشو) يصرخ فى جنون أطار عقله :

— لا فائدة أيها الشيطان المصرى .. لقد انتهى كل شىء .. سنموت معًا .

تطلّع (أدهم) إلى الهليوكوبتر ، التى تبتعد فى سرعة ، ثم جذب إليه (بانشو) فى قوة ، وقال فى صرامة :

— اسمع أيها الوغد .. أمثالك لا يقتلون أنفسهم بهذه البساطة .. هناك مخرج من هذا حتمًا .

أطلق (بانشو) ضحكة جنونية ، وهتف :

— ليس المهم هو المخرج أيها الشيطان ، وإنما الوقت الكافى للوصول إليه .. ولم يعُد لديك هذا الوقت .

ألقى (أدهم) نظرة على ساعة التوقيت ، وأحصى الثوانى

الباقية على الانفجار ، ثم جذب (بانشو) ، وانطلق يعدُو به مبتعدًا ، وهو يقول :

— ابذل أقصى جهدك لتتذكّر إذن أيها الوغد ..

هتف (بانشو) :

— لا وقت .. لا .. فائدة .

لوى (أدهم) ذراعه فى عنف ، وهو يقول فى قسوة :

— سأذيقك العذاب إذن فى الثوانى الباقية .

صرخ (بانشو) فى ألم :

— لا .. لا .. هناك مخرج سرى واحد ، خلف مكتبى الخاص ، ولكنك لن تبلغه أبدًا .. الوقت الباقى لن ..

دفعه (أدهم) بعيدًا ، وانطلق يعدُو بسرعة خرافية نحو مكتب (بانشو) ..

ومضت الثوانى فى سرعة مُذهلة ..

وبلغ (أدهم) المكتب ، و .....

ودوّى الانفجار ..

ومع الضاغط الناشئ ، اندفع جسد (أدهم) إلى الأمام ، وارتطم بحاجز خشبىّ ، يصعب تمييزه عن حائط المكتب ، وشعر بآلام فى أضلاعه ، عندما اخترق جسده ذلك الحاجز

الخشبى ، وسقط متدحرجًا فوق سلالم طويلة .. طويلة .. وأطنان من الأتربة تتساقط على المدخل ، وتنهمر خلفه على السلالم ..

ثم ارتطم جسد (أدهم) بالأرض فى قوة ..

وهوَت الأتربة والصخور فوقه ..

وبغريزة بقاء خرافية ، من رجل تجهل خلاياه ما تعنيه كلمة الاستسلام ، راح (أدهم) يشقُّ طريقه وسط الأتربة والغبار ، ويتفادى الصخور الساقطة ، ويبتعد ، ويبتعد ، وسط ظلام مُطْبِق ، ورائحة خانقة ..

ثم لاحت بقعة ضوء من بعيد ، بعد ساعة كاملة من السَّعى والصراع ..

واتجه (أدهم) بكل ما تبقَّى له من قوة نحو بقعة الضوء ..

وبدا له كل شىء وكأن السماء تُطبِق عليه ..

وراح يحفر عند بقعة الضوء فى إصرار ..

وفجأة ، غمره ضوء الشمس ..

ودفع جسده فى قوة إلى أعلى ..

إلى بقعة مقفرة من قلب صحراء (المكسيك) ..

وهنا ..

هنا فقط انهارت خلاياه ..

وسقط البطل ..

* * *

« إنه ليدهشنى حقًّا أنه ما يزال على قيد الحياة ... » .

كانت تلك العبارة هى أوَّل ما تسلل إلى عقل (أدهم) ، وهو يستعيد وعيه ..

ولقد فهمها على الفور ..

كانت العبارة باللغة الأسبانية ، ولم يجد صعوبة فى فهمها وتمييزها ، وإن خامره شعور عجيب بأن هذه اللغة ليست لغته الأصلية ، ففتح عينيه ، وتطلَّع إلى وجه كهل أشيب الشعر واللّحية والشارب ، ينحنى عليه فى اهتمام ، وغمغم بالأسبانية :

ـــ من أنا ؟!.. وماذا أفعل هنا ؟

لم يكن فى سؤاله أى نوع من التَّورية أو المواربة ..

لقد كان يجهل حقًّا من هو ..

الانفجار والصدمة لم يمرَّا بلا أثر ..

لقد حطَّما ثلاثة من أضلاعه ، وأصاباه بكمية ضخمة من الرضوض والسحجات .

وأفقداه ذاكرته ..



وفي حيرة راح يتطلّع إلى الكهل الأشيب ، وإلى تلك السمراء الفاتنة ، ذات الشعر الأسود الناعم الطويل ..

نعم ..

لقد فقد (رجل المستحيل) ذاكرته تمامًا ..

لم يعُد يذكر من هو ، ولا إلى أيّة دولة ينتمى ..

لم يعُد يذكر حتى ما أصابه ..

لقد تحوّلت ذاكرته إلى صفحة بيضاء تمامًا ..

وأصبح هو رجلًا بلا ماضٍ ..

وفي حيْرة راح يتطلّع إلى الكهل الأشيب ، وإلى تلك السمراء الفاتنة ، ذات الشعر الأسود الناعم الطويل ، والرموش الرائعة ، التى راحت ترنو إليه مشفقة ، وكرّر سؤاله :

ـــ أين أنا ؟.. ومن أنا ؟

ابتسم الكهل ، قائلًا :

ـــ أنت هنا في منزلى المتواضع .. أنا (برونكوفيلا) ، ممرّض قديم بالجيش المكسيكي لحُسْنِ حظك ، ومزارع حاليًا ، أمتلك مزرعة صغيرة ، وهذه ابنتى (ماريانا) ، وهى كل ما تبقّى من أسرتى ، أما مَنْ أنت ، فهذا ما أجهله تمامًا ، فلقد عثرنا عليك ، ابنتى وأنا ، فاقد الوعى ، محطّم الأضلاع في الصحراء ، فحملناك إلى هنا في (كيراوا) ، واستخدمت أنا

خبرتى المتواضعة لمداواتك ، ولكنك لم تكن لتنجو من كل إصاباتك ، لولا قوة بِنْيَتِك .

عاد (أدهم) يكرِّر فى حَيْرَة :

ـــ ولكن من أنا ؟

هزَّ (برونكو) كتفيه ، قائلًا :

ـــ الله وأنت وحدكما يمكنكما إجابة هذا السؤال يا ولدى .

قال (أدهم) فى ضيق :

ـــ ولكننى لا أذكر شيئًا البتَّة .. ذاكرتى بيضاء تمامًا .

سأله (برونكو) فى اهتمام :

ـــ ألا تذكر حتى أشياء متفرِّقة ؟

هزَّ (أدهم) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى مرارة :

ـــ مطلقًا .

تنهَّد (برونكو) فى أسف ، وقال :

ـــ لا ريب فى أنك قد تعرَّضت إلى صدمة قاسية ، أفقدتك الذاكرة ، والله وحده يعلم متى تستردُّها .

اندفعت (ماريانا) بغتة تقول :

ـــ ولكنك لست مكسيكيًا ..

حدَّق (أدهم) فى وجهها بدهشة ، فى حين عقد والدها حاجبيه ، قائلًا :

ـــ ما الذى يدعوك إلى قول هذا ؟

ارتبكت وهى تتطلَّع إلى (أدهم) ، وقالت :

ـــ إنه لا يتحدَّث الأسبانية بلهجة مكسيكية سليمة تمامًا ، ثم إنه أبيض البشرة ، وطويل القامة ، و .....

قاطعها والدها :

ـــ أى هُرَاء هذا ؟

أسرع (أدهم) يقول :

ـــ ربَّما هى على حق ياسيِّدى ، فصحيح أننى أتحدَّث الأسبانية ، ولكن شيئًا ما فى أعماق يؤكِّد لى أنها ليست لغتى .. هل تدرك ذلك ؟

ازداد انعقاد حاجبَىْ (برونكو) ، وهو يغمغم :

ـــ بالتأكيد .

ثم اعتدل مستطردًا :

ـــ على أيَّة حال ، إننا لن نسعى لكشف هُوِيَّتك الآن ، فعندما عثرنا عليك منذ يومين ، لم تكن تحمل أوراقًا ، أو .....

قاطعه (أدهم) فى دهشة :

ـــ منذ يومين ؟!.. هل أنا فاقد الوعى منذ يومين كاملين ؟

ابتسم (برونكو) ابتسامة باهتة ، وهو يغمغم :

ـــ على الأقل .

ثم اعتدل متأهبًا للانصراف ، وهو يستطرد :

ـــ سأتركك الآن لتستريح ، وستُعِدُّ لك (ماريانا) وجبة ساخنة ، وعليك أن تبذل أقصى جهدك لتسترد قواك في أسرع وقت .

قالها وابتسم ابتسامة أخرى باهتة ، قبل أن يغادر المكان ، ويغلق الباب خلفه في هدوء ، فابتسمت (ماريانا) لـ (أدهم) في تعاطف ، وربّتت على كفّه ، قائلة في حنان :

ـــ اطمئن .. ستشفى .

منحها أفضل ابتسامة استطاع رسمها على شفتيه ، وهو يتمتم :

ـــ أشكرك .

ثم استرخى في فراشه ، وترك لأفكاره العنان ..

من هو ؟..

من شعبه ؟..

إلى أي جنس ينتمي ؟..

بدت له كل هذه الأسئلة مُحيِّرة عجيبة ، وهو يعتصر ذهنه للبحث عن أجوبتها عبثًا ، ثم لم يلبث أن شعر بالإرهاق ، فقرَّر الاستسلام للموقف مؤقتًا ، حتى يسترد ذاكرته ..

أو يفقد هُويَّته ..

إلى الأبد ..

* * *



٥ ـــ عاصفة فى الأفق ..

أربعة أشهر مضت على تلك الواقعة ، استردَّ فيها (أدهم) قوته وعافيته ، وحمل ذلك الاسم ، الذى منحه إياه (برونكو) .. اسم (أميجو) .. الذى يعنى (الصديق) باللغة الأسبانية ، وأولته (ماريانا) كل عنايتها ، ومنحته حنانها .. أو فلنقل حبها ..

ولكن (أدهم) لم يشعر بكل هذا ..

لقد واصل رحلته اليائسة للبحث عن نفسه ..

لاستعادة ذاكرته ..

للسعى خلف هُويّته ..

وفى كل يوم ، كان (أدهم) يقضى نهاره فى معاونة (برونكو) فى مزرعته الصغيرة ، وعند غروب الشمس يمتطى جواده ، وينطلق به إلى ذلك النهر ، عند حافة المزرعة ، فيجلس على شاطئه الصخرى ، يتأمّل الغروب ، ويبذل أقصى جهده ؛ لاستعادة ذاكرته ..

وفى ذلك اليوم ، لحقت به (ماريانا) ..

ودون أن يبادلا كلمة واحدة ، جلست إلى جواره صامتة ، وراحت تلتقط الحصى الصغير ، وتلقى به فى النهر ، ثم لم تلبث أن التفتت إليه ، متمتمة :

ـــ (أميجو) .. أما زلت تبحث عن ماضيك ؟

أجابها دون أن يحوّل عينيه عن النهر :

ـــ الإنسان لا يستطيع محو ماضيه دفعة واحدة يا (ماريانا) .

تسلّلت أناملها الرقيقة تداعب أصابعه ، وهى تهمس فى حب :

ـــ وماذا تريد من الماضى ؟. فليذهب إلى الجحيم .. المهم هو الحاضر والمستقبل .

أبعد كفه عن أناملها ، وهو يقول :

ـــ لكل امرئ ما يهوى .

ثم نهض مستطردًا فى حزم :

ـــ هيّا .. سنعود إلى المزرعة .

قالت مستعطفة :

ـــ ولكن الوقت ما زال مبكرًا ، و .....

قاطعها فى لهجة آمرة ، لا تقبل النقاش :



— هيا .

حملها في بساطة ، لتحتل ظهر جوادها ، ثم قفز هو في رشاقة يمتطي صهوة جواده ، فقالت في مرارة :

— أأنا قبيحة إلى هذا الحد ؟

أجابها في هدوء :

— بل أنت فاتنة .

هتفت بلهجة أقرب إلى البكاء :

— لماذا إذن ......؟

قاطعها في خفوت :

— لست أدرى يا (ماريانا) .. إننى أقدرك ، وأقدر جميل والدك ، ولكننى أشعر أن وجودى هنا أمر مؤقّت ، وأخشى أن أستعيد ذاكرتى ، فأجدنى رجلًا متزوّجًا مثلًا .

قالت في حزن :

— وماذا لو لم تكن كذلك ؟

صمت هُنيهة ، ثم أجاب :

— من يدرى عندئذ يا (ماريانا) ؟.. من يدرى ؟

كان هذا آخر ما تبادلاه من حديث ، طوال طريق العودة إلى المزرعة ، ولم يكد المنزل يَلوح لهما وسط المزرعة ، حتى عقد (أدهم) حاجبيه ، وهو يقول :

— يبدو أن لدينا زوّارًا .

ولم يكد المنزل يلوح لهما وسط المزرعة ، حتى عقد (أدهم) حاجبيه ، وهو يقول : — يبدو أن لدينا زوّارًا ..

شحب وجه (ماريانا) ، ووضعت يدها على صدرها ، وكأنما تكتم ارتجافة قلبها ، وهى تقول فى خوف واضح :

ـــ إنه سنيور (توماس) ورجاله .

تطلّع إلى خوفها فى حَيْرة ، ثم عاد يلقى نظرة على ذلك البدين الضخم الجثة ، الذى يرتدى حُلّة أنيقة ، وقبعة عريضة الأطراف ، ويقف إلى جوار سيارة أمريكية فارهة ، تتوسّط ساحة المزرعة ، وحوله أربعة رجال تتدلّى مسدّساتهم فى أغمدتها ، على طريقة رعاة البقر ، وأمامهم يقف (برونكو) مرتبكًا متوتّرًا ، يتبادل الحديث مع البدين الضخم ، الذى يدخّن سيجاره فى غطرسة واضحة ، فسأل (أدهم) (ماريانا) فى اهتمام :

ـــ من (توماس) هذا ؟

ارتجف صوتها ، على نحو يشفّ عن خوفها ، وهى تجيب :

ـــ إنه مليونير أمريكى ، يبتاع كل مزارع المنطقة تقريبًا ، ويبدو أن دَوْر مزرعتنا قد حان .

سألها (أدهم) :

ـــ ولماذا يبتاع كل المزارع ؟

هزّت رأسها قائلة :

ـــ لست أدرى .

أدار عينيه بين وجهها المذعور ، وبين (توماس) ورجاله ، ثم قال فى هدوء :

ـــ الأمر لا يستحق كل هذا القلق والخوف ، فلو عرض (توماس) هذا مبلغًا جيّدًا ، يمكن لوالدك بيع مزرعته ، أما لو كان يرفض ذلك ، فلن يتمكّن (توماس) من .....

قاطعته فى ارتياع :

ـــ يبدو أنك لم تسمع عن (توماس) هذا .. ما دام قد قرّر الحصول على المزرعة ، فما من وسيلة لمنعه من ذلك .. لقد رفض جارنا (بابلو) بيع مزرعته ، وعثرت عليه زوجته بعدها قتيلًا إلى جوار النهر ، وعجزت الشرطة عن إثبات التّهمة على أى مخلوق ، و .....

قاطعها (أدهم) ، وهو يتطلّع إلى (توماس) بنظرة جيّدة :

ـــ آه !! هذا أسلوبه إذن .

وفى أعماقه تولّدت فجأة غريزة قتالية نشطة ..

أو أن ذهنه قد استعادها من دون ذاكرته ..

وفى هدوء وثقة ، عَبَرَ (أدهم) بجواده سور المزرعة

الخشبيّ ، وخلفه (ماريانا) ، وتوقّف إلى جوار سيارة (توماس) ، وهبط من فوق صهوة جواده ، قائلاً :

ـ مساء الخير يا سنيور (برونكو) .. يبدو أن لدينا زوّارًا هنا .

ارتبك (برونكو) ، وهو يقول :

ـ إنه مسيو (توماس) .

قال (أدهم) فى برود :

ـ أهلاً .

عقد (توماس) حاجبيه ، وهو يقول لـ (برونكو) :

ـ من هذا الوقح ؟

أجابه (برونكو) فى قلق :

ـ إنه (أميجو) .. مساعدى فى المزرعة ، و .....

قاطعه (توماس) غاضبًا :

ـ مُرْهُ بالتزام الأدب .

قال (أدهم) فى هدوء :

ـ وهل تجاوزته ؟

احتقن وجه (توماس) غضبًا ، وتحفّزت يد رجاله ، وهى تتجه نحو مقابض المسدسات ، فأسرع (برونكو) يقول :

ـ رُوَيْدك يا (أميجو) ، لا تتحدث إلى سنيور (توماس) هكذا .

شعر (أدهم) بذعر (برونكو) الشديد ، فتراجع مغمغمًا فى ضيق :

ـ لا بأس يا سنيور (برونكو) .. لا بأس .

نفث (توماس) دخانَ سيجاره فى عنف ، وهو يقول :

ـ هذا أفضل .

ثم التفت إلى (برونكو) ، مستطردًا فى لهجة رجل يكمل حديثًا سابقًا :

ـ هه .. ما رأيك يا (برونكو) .. سأدفع عشرة آلاف بيزو ، مقابل مزرعتك هذه .

ارتبك (برونكو) ، وهو يقول :

ـ معذرة يا سنيور (توماس) ، ولكن هذا المبلغ لا يساوى نصف ثمن المنشآت .

قال (توماس) فى ضجر :

ـ فليكن .. سأدفع عشرين ألفًا .. وهذا آخر رقم .

قال (برونكو) فى توتر بالغ :

ـ ولكننى لا أريد بيع المزرعة يا سنيور (توماس) .

ابتسم (توماس) ابتسامة ساخرة ، وهو يقول :

ــ لاتريد ماذا ؟..

انطلق فجأة يقهقه ضاحكًا ، وشاركه رجاله الأربعة ضحكته ، قبل أن يمسح فمه بكمّه على نحو مقزّز ، ويقول :

ــ اسمع يا (برونكو) .. إننى أريد هذه المزرعة ، وعندما يريد (توماس موران) شيئًا ، فإنه ......

قاطعه (أدهم) بغتة فى صرامة :

ــ يبدو أنك تحتاج إلى طبيب جيّد لتسليك أذنيك يا سنيور (توماس) ، فأنت لم تسمع سنيور (برونكو) جيّدًا ، عندما أعلن أنه يرفض بيع مزرعته .

بدت تلك العبارة أشبه بقنبلة دوّت فى أسماع الجميع ، وساد بعدها صمت رهيب ، وشحُبَ وجها (برونكو) و (ماريانا) ، واحتقن وجه (توماس) ، وارتسم الذُّهول فى عيون ووجوه الجميع ، وقد صار (أدهم) فى لحظة واحدة قِبْلَة أنظارهم ، فى حين وقف هو هادئًا ، ممشوق القوام ، يعقد ساعديه أمام صدره القوى ، ويتطلّع إلى (توماس) ورجاله فى برود ، قبل أن ينفجر (توماس) صارخًا :

ــ هل جُننت ؟

قال (أدهم) فى لهجة باردة كالثلج :

ــ ربّما .. والآن أخبرنى .. هل تفضّل الرحيل مع رجالك فى سيارتك ، أم أنك تجد سيارة الإسعاف أكثر راحة ؟.

حدّق الجميع مرّة أخرى فى وجه (أدهم) فى ذهول ، وغمغمت (ماريانا) فى انبهار :

ــ (أميجو) .. يا إلهى !!!.

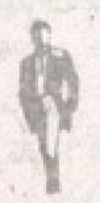
وصرخ (توماس) وقد جُنّ جُنُونه :

ــ لقد تجاوز هذا المعتوه حدوده ، ويحتاج إلى درس قاسٍ يا رجال ..

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى ضمّ الرجال الأربعة قبضاتهم ، واندفعوا اندفاعة رجل واحد نحو (أدهم) ..

وحانت لحظة الاختبار ..

* * *



٦ ــ الرجــل ..

صحيح أن (أدهم صبرى) كان فاقدًا لذاكرته تمامًا ..

صحيح أنه لم يكن يعلم من هو ؟.

ما هُويّته ؟.

أين وطنه ؟.

ولكن فى مثل تلك الظروف ، عندما يتعرّض المرء لخطر ما ، فإن دَوْرَ الذاكرة هنا يتراجع ، وتبقى فقط الغريزة ..

غريزة البقاء ..

وفى تلك اللحظة ، عندما بدأ الهجوم ، لم يكن (أدهم صبرى) يذكر أنه يعدّ أقوى رجل مخابرات فى العالم ، باعتراف الأعداء قبل الأصدقاء ..

ولم يكن يذكر كم من المهارات يمتلك ..

ولكنه كان يشعر بالقوة ..

عقله الباطن كان يعلم من هو ..

ولقد هاجم رجال (توماس) خصمهم الأعزل ، وهم يجهلون نفس ما يجهله هو ..

يجهلون أنه الرجل ، الذى ارتجف لذكر اسمه عمالقة أركان العالم كله ..

(رجل المستحيل) ..

ولقد ظلّ (أدهم) عاقدًا ساعديه أمام صدره ، متطلّعًا إلى مهاجميه بنفس النظرة الباردة الخاوية ، حتى صاروا على قيد خطوات منه ..

وفجأة ، استحال إلى عاصفة عاتية مدمّرة ..

لقد انحنى بغتة ، متفاديًا لكمة الرجل الأوّل ، ثم انتصب مُوَجِّهًا لهذا الأخير لكمة كالقنبلة ، ارتدّ لها الرجل مترًا كاملًا إلى الخلف ، وارتطم بالأرض كبرميل ممتلئ بالرمال ، فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها قدم (أدهم) ، وركلت فكّ الرجل الثانى ، ثم انطلقت قبضته الثانية تحطّم فكّ الثالث ، واشتركت كفّاه فى جذب الرابع إليه ، بدلًا من تفاديه ، ثم ارتفعت رُكبته تغوص فى معدة الرجل ، وتخلّت كفّاه عنه ، وهبطتا فى سرعة مذهلة ، لتلتقط إحداهما مسدّس الرجل ، وتدفعه الأخرى أرضًا ..

وفى غضون ثانيتين لا غير ، وهما كل الزمن الذى استغرقه هذا القتال ، وجد (توماس) رجاله حوله ، وقد ذاقوا أمرّ

هزيمة فى عمرهم كله ، والرجل الذى أرادوا تحطيمه يقف شامخًا ، وابتسامته الساخرة تملأ وجهه ، ومسدّس أحد الرجال فى قبضته ، يصوّبه إلى الرجال وقائدهم ، قائلًا :

— حسنًا !! ماذا كنّا نقول ؟

حدّق (توماس) فى وجهه فى ذهول ، وامتلأت أذناه بتأوّهات رجاله ، وهم ينهضون فى ألم وصعوبة ، فى حين شحُب وجه (برونكو) ، وهو يتمتم غير مصدّق ما رأته عيناه :

— أوه !! (أميجو) .. كيف فعلت هذا ؟.. كيف ؟

أما (ماريانا) ، فقد تراجعت ذاهلة ، وراحت تنقّل بصرها بين (أدهم) ورجال (توماس) ، قبل أن تهتف بصوت كالهمس :

— (أميجو) ؟.

وفجأة ، انطلق صوت (توماس) كقنبلة من الغضب ، وهو يصرخ :

— كيف جرؤت ؟..

قال (أدهم) بنفس السّخرية :

— هل أستدعى سيارة الإسعاف ؟

احتقن وجه (توماس) فى شدة ، وقال ساخطًا :

— اسمع ياهذا .. إننى أعترف بقوتك ، وبهزيمتك لرجالى ، ولكن ينبغى أن تعلم مع من تتعامل .. إننى (توماس) .. (توماس موران) ، وهؤلاء الرجال الأربعة الذين حطّمت فكوكهم ليسوا سوى ذرّة فى جيش رجالى ، ولقد حطّمت من هم أقوى منك من قبل ، ولتعلم أننى لم أتخلّ بعد عن رغبتى فى هذه المزرعة .

ثم رفع قدمه ، وضرب بها الأرض فى قوة ، مستطردًا فى ثورة :

— عندما يطأ (توماس موران) أرضًا بحذائه ، فإنه يحصل عليها ، مهما كان الثمن .

انعقد حاجبا (أدهم) فى صرامة مخيفة ، وهو يقول بلهجة آمرة ، وصوت يكفى لتجميد الدماء فى العروق :

— اخلع حذاءك .

حدّق الجميع فى وجهه فى ذهول ، وارتجف صوت (برونكو) ، وهو يقول :

— (أميجو) .. لاتتماد .

وبرقت عينا (ماريانا) ، وهى تتابع مايحدث ، فى مزيج عجيب من الشغف والخوف ، فى حين هتف (توماس) ذاهلًا :



انطلقت بغتة رصاصة من مسدّس (أدهم) ، أصابت الأرض بين قدمي (توماس) تمامًا ، فقفز هذا الأخير في ذعر ..

ــ هل جُننت ؟

جذب (أدهم) إبرة مسدّسه في صرامة تشفّ عن جدّية أمره ، وهو يكرّر بنفس اللهجة الآمرة الرّهيبة :

ــ اخلع حذاءك أيها الوغد .

توتّر رجال (توماس) في شدة ، فأضاف (أدهم) :

ــ وسأطلق النار على آخر من يحتفظ بمسدّسه منكم .

أسرع الرجال يلقون مسدّساتهم أرضًا ، في ذعر واضح ، وقد أنبأتهم تلك الآلام ، التي تملأ موضع لكمات (أدهم) ، أنه ليس من الحكمة في شيء عدم إطاعة أوامره ، في حين التفت (توماس) إلى (برونكو) ، وألقى سيجاره أرضًا في عُنف ، وهو يصرخ :

ــ هل أصيب مساعدك هذا بالجُنُون ؟

انطلقت بغتة رصاصة من مسدّس (أدهم) ، أصابت الأرض بين قدمي (توماس) تمامًا ، فقفز هذا الأخير في ذُعر ، وحدّق في وجه (أدهم) ، الذى كرّر :

ــ اخلع حذاءك ، أو يضطر طبيبك الخاص لانتزاعه من قدمك ، قبل بترها .

ثم أضاف في لهجة جمّدت الكلمات في حُلوق الجميع :

— وهذا الأمر يشمل الجميع .

أسرع رجال (توماس) الأربعة يخلعون أحذيتهم ، وتبعهم هذا الأخير في حنق ، وقد شحب وجه (برونكو) ، حتى كاد يحاكي وجوه الموتى ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وهتف (توماس) ، وهو يلوّح في وجه (أدهم) بسبّابته في غضب :

— ستدفع ثمن هذا غاليًا .

تجاهل (أدهم) العبارة تمامًا ، وهو يقول في برود :

— استعدّ أيها البدين .. ستركض بقدميك العاريتين طويلًا ، حتى تبلغ منزلك .

هتف (توماس) ، وقد صار وجهه في لون الدم ، من شدة احتقانه :

— لن أخطو خطوة واحدة بدون السيارة .

وفي بُرودٍ متناه ، أطلق (أدهم) رصاصات مسدسه نحو خزان وقود السيارة ، ومبرّد المياه بها ، وسال الوقود ، واختلط بالماء ، وهو يقول في سُخرية :

— لقد تلفت السيارة .

مال أحد الرجال على أذن (توماس) ، وهمس مرتبكًا متوترًا :

— من الواضح يا سيّدى أنه يتميّز بالعناد الشديد ، و .....

صرخ (توماس) :

— اخرس .

ابتسم (أدهم) في سُخرية ، وهو يقول :

— أمر طريف .

ثم اكتست ملامحه بصرامة مخيفة مباغتة ، وهو يستطرد :

— والآن فليبدأ الجميع الركض ، وسأقتل من أجده داخل حدود المزرعة ، بعد عشر دقائق من الآن .. هيّا .

تردّد الرجال ، وهم يتطلّعون إلى (توماس) ، الذى قال في غضب هادر :

— ستندم أشدّ الندم على تبجُّحك هذا .

رفع (أدهم) مسدسه ، وأطلق رصاصة في الهواء ، صائحًا :

— هيّا .

انطلق الجميع يعدون في رُعب ، وبلغ لهاث (توماس) آذان (أدهم) و (برونكو) و (ماريانا) ، وهو يجاهد للّحاق برجاله ، على الرغم من بدانته ، فأطلق (أدهم) ضحكة ساخرة ، والتفت إلى (برونكو) ، قائلًا :

— أهذا هو (توماس) الرهيب ؟
واجهه وجه (برونكو) الشاحب ، وهو يقول فى انهيار :
— ماذا فعلت أيها التعس ؟
هزَّ (أدهم) كتفيه فى هدوء ، وهو يقول :
— وماذا فعلت ؟.. لقد لقَّنت وغدًا ما يستحقه من درس .
لوَّح (برونكو) بكفِّه ، متمتمًا :
— لقد حطَّمت كل شىء .
أسرعت إليه (ماريانا) ، هاتفة فى لوعة :
— أبى .
استند الكهل إليها ، وهو يستطرد فى مرارة :
— لقد أشعلت غضب (توماس) ، ولم يَعُد لدينا سوى الرحيل .
عقد (أدهم) حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :
— لا يا سنيور (برونكو) .. صحيح أننى أجهل هويَّتى ، ولكننى لم أكن لأفارق وطنى أبدًا بإرادتى ، فرارًا من وجه أعدائى .. إننى أفضل الموت وأنا أذود عنه .
صرخ (برونكو) :
— فلتحتفظ بهذا لنفسك .

ثم أضاف فى يأس وجزع :
— إنك لا تعلم من هو (توماس) .. إنه أقوى رجل فى (كيواوا) كلها .. إنه يملك كل شىء ، حتى ضمائر القضاة ورجال الشرطة ، وأنت لم تكتفِ بتحدِّيه فحسب ، بل عملت على إذلاله وتحقيره ، و (توماس) ليس ممن يغفرون هذا .. سترى كيف سينقلب العالم كله على رأسك غدًا ، بالإضافة إلى ما ستواجهه على يد جيش (توماس) الجرار .
أجابه (أدهم) فى هدوء :
— لا يقلقنك الأمر .. لن يحصل (توماس) على شبر واحد من مزرعتك .
هتف به (برونكو) ساخطًا :
— أتثق بنفسك إلى هذا الحدّ ؟
أصاب السؤال نفس (أدهم) بحَيْرة بالغة ..
لقد فجَّر ذلك الصراع القصير شيئًا ما فى أعماقه ..
لقد أبرز قوته وجرأته ..
شىء ما فى نفسه يقول إنه يملك قدرات هائلة ..
ولكنه لا يدرك هذا ..
والعجيب أنه — إزاء هذا التحدِّى — لم يكن يشعر بالخوف ، بل بنوع من النشوة ..

نشوة مقاتل عاد إلى حلبة الصراع ..

وفي هدوء ، أجاب :

ــ قلت لك اطمئن .

لوّح (برونكو) بذراعه كلها ، صائحًا :

ــ لا .. لن أحتمل مجرّد الخاطرة .

ثم أضاف في حزم :

ــ سنرحل .

قال (أدهم) في حزم :

ــ لا .. سأرحل أنا ، ولتبق أنت وابنتك في أرضكما .

أطلقت (ماريانا) شهقة قصيرة ، خفَتت عن لوّعتها ، في حين حدّق (برونكو) في وجه (أدهم) لحظة ، ثم لوّح بكفّه ، قائلًا :

ــ لا فائدة .. أسلوبك مع (توماس) سيؤجج رغبته في الحصول على مزرعتي ، ورحيلك سيصيبه بالجنون ، ولن يهدأ قبل أن يريق دمي ودم (ماريانا) على الأقل .

رانَ عليهما الصمت طويلًا ، ثم أطلقت (ماريانا) شهقة ذُعر ، وهي تشير إلى حدود المزرعة ، صارخة :

ــ أبي .. (أميجو) .. انظرا !

أدار الاثنان عيونهما إلى حيث صرخت ، وشهق والدها بدوره في رُعب ، وهتف في ارتياع :

ــ فلْيَرْحَمنا رب السموات .

أما (أدهم) ، فقد انعقد حاجباه في شدّة ..

لقد كانت هناك أنوار قافلة من عشر سيارات تقترب في سرعة من مزرعة (برونكو) ...

وكان من الواضح أن (توماس موران) لم يحتمل الانتظار للغد ..

لقد حشد جيشه ، وقرّر بدء هجومه على الفور ..

وعلى الرغم من دقة الموقف ، التفت (أدهم) إلى (برونكو) و (ماريانا) ، وقال في هدوء حازم :

ــ ابتعدا عن هنا .. اذهبا إلى البئر ، واختفيا داخله .

هتف (برونكو) في انهيار :

ــ لا فائدة .. لقد انتهى كل شيء .

صاح به (أدهم) في صرامة :

ــ قلت اذهبا .

ارتجف صوت (ماريانا) ، وهي تقول :

ــ تعال معنا .

قال وهو يجمع المسدسات الثلاثة الأخرى ، ويتجه نحو جواده :

ـ اذهبا .

عاونت والدها على المضىّ معها نحو البئر ، فى حين اعتلى (أدهم) صهوة الجواد ، وعيناه تراقبان قافلة السيارات فى صرامة رجل يدرك جيدًا معنى أن يقاتل وحده ..

وأن يكون خصمه جيشًا كاملًا ..

* * *



٧ ـ .. والمستحيل ..

حطمت قافلة السيارات سور المزرعة الخشبىّ ، وانطلقت تهرس المزروعات بإطاراتها ، وعلى متنها أربعون رجلًا مسلّحون بالمدافع الآلية ، وعلى رأسهم (توماس موران) ، الذى يلوّح بقبضته ، صارخًا :

ـ سيدفعون الثمن .. أريدهم جميعًا أحياء ، وخاصة ذلك الحقير (أميجو) .. سأجعله يعدو فوق جمر مشتعل .. أقسم أن أفعل .

أحاطت السيارات العشر بمنزل المزرعة الخشبىّ ، وصرخ (توماس) :

ـ اخرجوا جميعًا .. استسلموا أو أطلق النار .

جاوبه صمت تام ، جعل أحد رجاله يقول فى حذر :

ـ يبدو أنهم قد غادروا المكان يا سيّدى .

صرخ (توماس) فى غضب :

ـ مستحيل !.. لابدّ أن أقتصّ منهم جميعًا .

ثم أشار إلى المنزل ، هاتفًا :

— اقتحموا المكان ..

انقضَّ رجاله على المنزل الخشبيّ ، وراحوا يمطرونه برصاصاتهم ، وهم يطلقون صرخات همجية وحشية مخيفة ، جعلت (برونكو) يتشبَّث بابنته في قرار البئر ، وهو يهتف بصوت خافت :

— إنهم يدمرون كل شيء .. كل شيء .

أمسكت ابنته كتفيه ، وهي تقول بصوت مرتجف :

— فليذهب كل شيء إلى الجحيم يا أبي .. إننا ندفع ثمن حياتنا .

أشار إلى أعلى ، هاتفًا :

— وماذا عن حياة (أميجو) ؟

خفق قلبها في لوعة ، مع ذكر الاسم ، وترقرقت في عينيها دمعة ، وهي تقول :

— فلتحفظه السماء .

وفي نفس اللحظة ، كان رجال (توماس) قد انتهوا من تفتيش المنزل ، وخرجوا إلى قائدهم ، يقولون :

— لا أحد بالداخل أيها الزعيم .

صاح (توماس) غاضبًا :

— أين ذهبوا ؟.. انطلقوا للبحث عنهم .. فتشوا كل شبر في هذه المزرعة اللعينة .. أريدهم أحياء بأيِّ ثمن .

همَّ الرجال بالانطلاق في كل مكان ، لتفتيش المكان ، لولا أن أمطرت السماء فجأة ..

لم تمطر ماءً ، كما تفعل دومًا ، وإنما أمطرت وقودًا ..

شلال من البنزين انهمر فوق كل الرءوس ، من سطح المنزل الخشبيّ ، وغمر الجميع ..

وفي سرعة وغضب ، استدارت كل الرءوس إلى سطح المنزل ، وارتفعت كل فوهات المدافع الآلية نحوه ..

وهناك كان يقف (أدهم صبري) هادئًا ، مبتسمًا ، وإلى جواره برميل ضخم ، مزوَّد بمضخة الري ، ويحمل على جانبه كلمة (بنزين) بحروف أسبانية ..

وصرخ (توماس) :

— أطلقوا النار ..

ولكن أحدًا من رجاله لم يُطع أمره هذه المرَّة ..

لقد تسمَّرت عيونهم جميعًا بيد (أدهم) اليسرى ، التي تمسك بمشعل تتأجج فيه النيران ، وهو يقول في سخرية :

— أحقًا ؟!.. لقد أدرك رجالك ما لم يدركه غباؤك أيها

الأمريكي .. أدركوا أن البنزين الذى غمرتهم به مادة سريعة الاشتعال ، وأنهم عندما يطلقون رصاصاتهم على جسدى سأسقط صريعًا ، ويسقط معى ذلك المشعل ، فتتحوّلون جميعًا إلى شعلة من النيران فى لمح البصر .

احتقن وجه (توماس) غضبًا ، وهتف :

— يا للشيطان !!

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وهو يقول :

— هيّا يا جيش الأبله .. ألقوا أسلحتكم ، وإلا ألقيت أنا مشعل .

وبكل الحنق والغضب والسُّخط ، ألقى أربعون رجلًا أسلحتهم أرضًا ، أمام رجل واحد ، وصرخ (توماس) :

— إنك لن تنجو إلى الأبد .

أجابه (أدهم) بعبارة آمرة :

— هيّا أيها الوغد .. اخلع حذاءك ، وليخلع الجميع أحذيتهم .

شحب وجه (توماس) ، وهو يهتف :

— لا .. ليس مرّة ثانية .

أطلق (أدهم) ضحكة قصيرة ، وهو يقول :

— ولِمَ لا .. إننى أهوَى جمع الأحذية .. هيّا .

أطاعه الجميع فى حَنَق شديد ، وألقى (توماس) حذاءه فى عُنف ، وهو يقول غاضبًا :

— فى المرّة القادمة لن تجد الوقت الكافى لنطق مثل هذه العبارة .

أجابه (أدهم) :

— وفى المرّة القادمة لن أكتفى بخلع حذائك ، وإنما سأعيدك إلى منزلك عاريًا كما ولدتك أمك .

عضّ (توماس) شفتيه قهرًا ، وهو يقول :

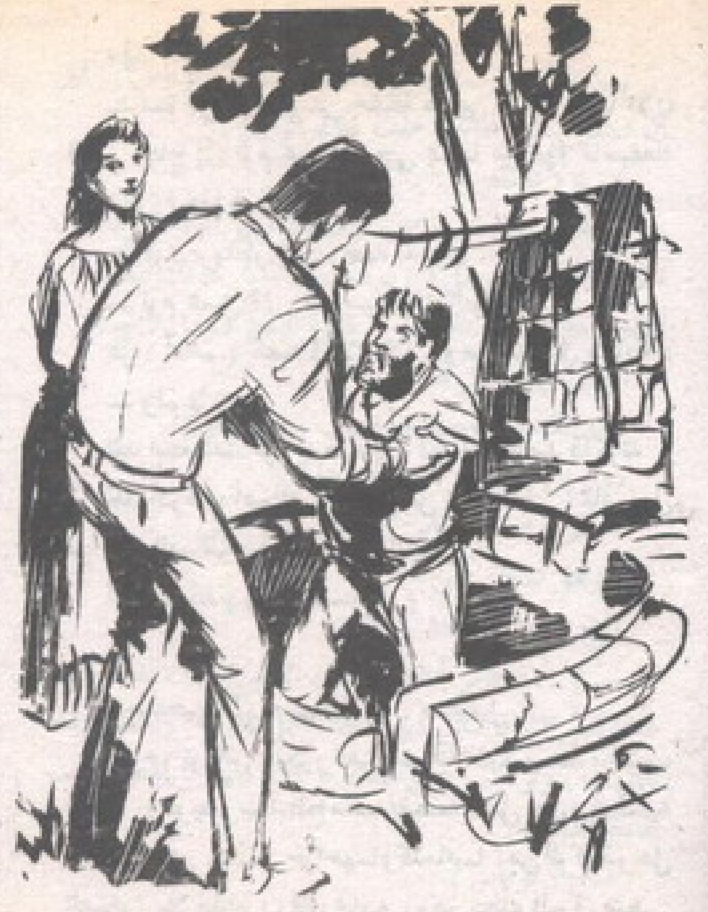
— أيها الوغد .

صاح (أدهم) :

— والآن هيّا .. سيبدأ السباق ، وسأطلق النار على أبطأ الجميع عَدْوًا .

انطلق الجميع يعْدُونَ حُفاة الأقدام ، فوق حصَى المزرعة ، وأشواكها ، وهو يشيّعهم بضحكاته الساخرة ، ثم لم يلبث أن أطفأ مشعله ، وقفز من سطح المنزل ، واتجه فى هدوء نحو البئر ، وانحنى يقول :

— يمكنكما الصعود ، لقد انسحب الجيش ، وأصبحنا نملك ما يكفى لافتتاح متجر للأحذية المستعملة .



ووقفت إلى جواره صامتة ، تتأمله في إعجاب ، في حين تسلق والدها الحبل

ثم راح يعاون (ماريانا) على الصعود ، ووقفت إلى جواره صامتة ، تتأمله في إعجاب ، في حين تسلق والدها الحبل ، وهو يقول في يأس :

ــ إنني أعترف لك بالجرأة والمهارة ، ولكن كل ما تفعله يزيد النيران تأججًا فحسب .

قال (أدهم) في هدوء

ــ لقد انفتحت أبواب الجحيم ، ولن يغلقها إلا النصر .. أو الموت .

هتف (برونكو) ، وهو يشير إليه :

ــ أنت فتحتها على مصراعيها .

أجابه (أدهم) في حزم :

ــ وأنا سأغلقها .

قفزت الكلمة التالية إلى لسانه بتلقائية :

ــ بإذن الله (سبحانه وتعالى) .

تطلع إليه (برونكو) و (ماريانا) في دهشة ، ثم أشاح (برونكو) برأسه ، مغمغمًا :

ــ صدقت (ماريانا) .. أنت لست مكسيكيًا ، فنحن لا نستخدم هذا المصطلح أبدًا .

تنهّد (أدهم) في عمق ، وقال :

ــ سنؤجّل البحث عن حقيقة هُويّتي لما بعد ، أما الآن فنحن نحتاج إلى نوم عميق ، حتى يمكننا مواجهة ما سيفعله (توماس) هذا في الغد .

حدّق (برونكو) في وجهه بذُهول ، متمتمًا :

ــ نوم عميق ؟!.. هل سيمكنك النوم ؟

هزّ (أدهم) كتفيه في لامبالاة ، وهو يقول في بساطة :

ــ ولِمَ لا ؟

لقد استعادت غريزته طبيعتها ، قبل أن يستعيد ذاكرته ..

لقد أدركت أعماقه أنه رجل من نوع خاص ، قادر على مواجهة العمالقة ، وتحطيم أنف الخطر ..

أدركت أنه (رجل المستحيل) ..

* * *

« مستحيل !!.. مستحيل !!.. مستحيل !!.. » ..

صرخ (توماس) يكرّر العبارات الثلاث في سُخط وغضب بالغين ، وهو يضرب سطح مكتبه بقبضته ، على حين ترك قدميه لطبيبه الخاص ، يضمّد جراحهما وكدماتهما ، من أثر العَدْو على الصخور بلا حذاء ، وقال محاميه ، وهو يتطلّع إليه في ضيق :

ــ كان ينبغي أن تستشيرني أوّلًا يا سنيور (توماس) ، قبل أن تنطلق بكل رجالك خلف ذلك الرجل .

صرخ (توماس) :

ــ أستشيرك أنت ؟!.. وماذا تفهم أنت في شئون القتال ؟!.. إنك رجل قانون فحسب ، كل عملك هنا هو أن تُطلعني على ثغرات القانون ، وكيفية النفاذ عَبْرها بلا خسائر ، أما القتال فهو عملي أنا .

عقد المحامي حاجبيه في غضب ، وهو يقول :

ــ ومن الواضح أنك تجيد عملك .

احتقن وجه (توماس) ، وهو يصرخ :

ــ هل تسخر منّي ؟

لوّح المحامي بذراعه ، قائلًا :

ــ لا .. ولكنني أنتقد أسلوبك الأهوج هذا ، فلقد كانت هناك عشرات الوسائل لنيل ذلك الرجل قانونيًا ، ولكنك تنقاد لغضبك ، وترتكب مع رجالك ما كان كفيلًا بإيقاعكم تحت طائلة القانون .

صاح (توماس) :

ــ أي قانون ؟!.. أنسيت أن رئيس الشرطة هنا يتقاضى

منّى راتبًا ضخمًا ، مقابل التغاضى عن أيّة أخطاء قانونية ؟..
وأننا قد اشترينا قاضيين ، و .....

قاطعه المحامى فى صرامة :

ــ ولكنك لم تنجح فى شراء الحاكم ، أو وكيل النيابة ، فلا تنسَ هذا .

صرخ (توماس) هادرًا :

ــ اسمع أيها المحامى ، إننى لا أدفع لك ذلك الأجر الباهظ ، لتقف عقبة فى سبيل .. المفروض أن أفعل ما يحلو لى ، ثم تسعى أنت لتقنينه .

هتف المحامى غاضبًا :

ــ أنت تعكس الأمور يا سنيور (توماس) .

صرخ (توماس) :

ــ وأنت تزيدها تعقيدًا .

نهض الطبيب قائلًا :

ــ اهدأ يا سنيور (توماس) .. لقد انتهيت من تضميد قدميك ، ولكن عصبيتك الزائدة هذه ستفجّر شرايينك ، خاصّة وأنت تعانى ضغط الدم المرتفع .

التفت إليه (توماس) ، قائلًا فى حدّة :

ألم تنته من عملك ؟.. هيّا .. انصرف إذن .

مطّ الطبيب شفتيه فى استنكار ، وقال وهو يجمع أدواته :

ــ لقد أصبحت شخصًا لا يطاق يا سنيور (توماس) .

صرخ فيه (توماس) ، وهو يغادر الحجرة :

ــ اذهب إلى الجحيم .

ثم التفت إلى محاميه ، مستطردًا :

ــ والآن .. ألديك وسيلة قانونية ، لتحطيم هذا الرجل ؟

ابتسم المحامى ، وقد لاح له انتصار أسلوبه ، وقال :

ــ هناك عشرات الوسائل للتخلّص منه .. يمكنك أن تتّهمه مثلًا بإتلاف سيارتك عمدًا ، أو بسرقتك ، وسندفع (جوزيه) لإلقاء القبض عليه بهذه التّهمة ، وبعدها ..

فرقع إبهامه ووسطاه ، وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ، تخيّل إليه أنها تحمل المعنى المقصود ، ولكن (توماس) سأله فى عصبيّة :

ــ وبعدها ماذا ؟

ضايقه أن (توماس) لم يفهم مغزى الحركة ، فقال فى خفوت :

ــ سيتولّى (جوزيه) أمره فى السجن .

برقت عينا (توماس) في شراسه ، وأسرع يُشعل سيجاره في انفعال ، وهو يقول :

ـــ فهمت .. ستوقع به في يد (جوزيه) ، وهناك ، عندما يصبح خلف القضبان ، يتولّى (جوزيه) أمره ، و .....

نفث دُخان سيجاره في قوة ، وتألّقت عيناه جذلاً ، وهو يهتف في حماس :

ـــ ويقتله .

***



٨ ـــ القانون ..

على الرغم من صعوبة الموقف ، الذي تواجهه المزرعة ، وعلى الرغم من أن (برونكو) وابنته لم يغمض لهما جفن طِيلَةَ الليل ، إلا أن (أدهم) استغرق في نوم عميق أدهشهما ، حتى أن (برونكو) سأل ابنته في حَيْرة ، عندما عادت من باب حجرة (أدهم) ، على أطراف أصابعها .

ـــ أما يزال نائمًا ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، وابتسمت ابتسامة حانية ، وهي تقول :

ـــ وعلى شفتيه ابتسامة .

كرّر في دهشة :

ـــ ابتسامة ؟!

ثم هزّ رأسه مغمغمًا :

ـــ عجيب هذا الرجل !!.. يواجه جيشًا من القتلة ، الذين لا يتورّعون عن إراقة دماءِ القديسين أنفسهم ، مقابل حفنة من الدولارات ، وشيطان أمريكي مجنون ، لم ينجح شخص وقف

فى طريقه قطُّ ، وعلى الرغم من ذلك ، يجد فى أعصابه ما يكفى لمنحه نومًا عميقًا ، فى ظل كل هذه الظروف .. إنه إما شجاع شجاعة الأسود ، أو أحمق تمامًا .

ابتسمت (ماريانا) ، وهى تتطلّع إلى حجرة (أدهم) ، قائلة :

— إنه لايبدو لى أحمق .

تطلّع إليها والدها لحظة ، ثم عاد يخفض عينيه ، متمتمًا :

— بالتأكيد .. بالتأكيد .

وفى نفس اللحظة كان (أدهم) غارقًا فى النوم ..

لقد استعاد جزءًا من نفسه ..

استعاد طبيعته المقاتلة العنيدة ..

إنه الآن يدرك أنه ولد مقاتلًا ..

وأنه عاش كذلك ..

وفى تلك الليلة ، كانت أحلامه كلها تعبّر عن القوة والبأس ..

رأى نفسه يقاتل وسط أحراش ، وفى رمال الصحارى ، وعلى الثلوج ..

رأى نفسه يقود طائرات وغواصات ..

واحتشدت أحلامه بعشرات الوجوه ، التى لايذكر أسماء أصحابها قطُّ ..

ثم تلاشت الوجوه كلها ، وبقى منها وجه واحد ، مسّ شغاف قلبه ..

فابتسم ..

وتلاشى ذلك الوجه بدوره ..

وتلاشت الأحلام كلها ..

ثم استيقظ عقله بغتة ..

استيقظ على صوت خافت ، لم ينتبه إليه (برونكو) وابنته ، اللذان لم يغمض لهما جفن ..

ولم تكد أذن (أدهم) المدرّبة تلتقط ذلك الصوت الخافت ، وتميّز فيه صوت محرّك سيارة تقترب ، حتى تنبّه عقله على الفور ، فقفز من فراشه ، والتقط مسدسًا من تحت وسادته ، واندفع فى خفّة قطٍّ نحو النافذة ..

ومن بعيد ، ومع أضواء الشروق الأولى ، رأى سيارة تقترب ..

وكانت سيارة شرطة مكسيكية ، فاعتدل قائلًا فى سخرية :

— يبدو أن الحرب ستتخذ مسارًا جديدًا .

وارتدى قميصه في هدوء ، مع اقتراب السيارة ، ووضوح صوتها ، ولم يدهشه أن اندفع (برونكو) إلى حجرته ، وهو يقول مضطربًا :

— هناك سيارة شرطة تقترب .

أجابه (أدهم) في هدوء ، وهو يحشو قميصه داخل سرواله :

— أعلم ذلك .

ألقى (برونكو) جسده على أقرب مقعد ، وهو يغمغم منهارًا :

— وماذا سنفعل ؟

تأكد (أدهم) من حشو مسدسه ، ثم دسه في حزامه ، أسفل القميص ، وهو يقول في لهجة تدعو إلى الثقة :

— اترك الأمر لي ..

كانت عبارة مطاطة مُبهمة ، قد تعني كل شيء ، أو لا تعني شيئًا بالمرة ، إلا أن اللهجة التي نطقها بها (أدهم) أخرست (برونكو) ، وحبست الكلمات في حلقه ، وإن لم تنجح في محوِ شحوب وجهه وتوتره ، حتى سأله (أدهم) ، وهو يشير إلى الضابط المكسيكي ، الذي غادر سيارة الشرطة ، بعد توقفها أمام المنزل :

— ما اسم هذا الشرطي ؟

أجابه (برونكو) في خفوت :

— (جوزيه) .

ثم انتابته نوبة مفاجئة من التوتُّر والعصبيَّة ، وهو يستطرد :

— ولكنني أحذِّرك .. إنني أرفض التورُّط في مشاكل دموية مع رجال الشرطة الرسمية .

ابتسم (أدهم) ، وهو يقول :

— مشاكل دموية ؟!.. من أشار إلى تلك الأمور البغيضة ..

وتسلَّل شيء من الغموض إلى ابتسامته ، وهو يضيف :

— إننا سننهي الأمر بصورة وُدِّيَّة مع الضابط (جوزيه) .

غمغم (برونكو) في دهشة :

— وُدِّيَّة ؟!..

ثم استطرد في حدَّة :

— من الواضح أنك تجهل كل شيء عن كيفية إدارة الأمور في (كيواوا) يا (أميجو) .. إن (جوزيه) هذا واحد من رجال (توماس) ، وما دام قد أرسله إلى هنا ، فهذا يعني أننا في مأزق حرج رهيب .

اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وهو يقول :

— فلنعكس الآية إذن ، ولنضعه هو في مأزق حرج .



اتجه إليه (أدهم) ، ووضع يده على كتفه فى وُدّ عجيب ، وهو يشير إلى سور المزرعة المحطَّم من بعيد ...

ترك (برونكو) غارقًا فى دهشته ، واتجه فى هدوء إلى باب المنزل ، ولم يكد يلمح (جوزيه) ، الذى رسم على وجهه علامات الصرامة والعنف ، حتى ابتسم ملوِّحًا بيده ، قائلًا :

ــ مرحبًا أيها الضابط ، من حُسْنِ الحظ أنك قد أتيت هنا ، فلدينا شكوى ضد سنيور (توماس موران) .

كانت مفاجأة لـ(جوزيه) ، أطاحت بقناع الصرامة من على وجهه ، فارتبك مغمغمًا :

ــ ضد سنيور (توماس) ؟!

اتجه إليه (أدهم) ، ووضع يده على كتفه فى وُدّ عجيب ، وهو يشير إلى سور المزرعة المحطَّم من بعيد ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد .. انظر .. لقد اقتحم مع رجاله المزرعة قسرًا ليلة أمس .

نفض (جوزيه) دهشته ، وانتفض قائلًا فى غضب :

ــ ماذا تفعل أيها الرجل ؟.. إننى هنا من أجل ..

قاطعه (أدهم) وهو يهمس فى أذنيه ، بلهجة توحى بخطورة الأمر :

ــ اصمت الآن ، فلا يجب أن يستمع (برونكو) وابنته إلى حديثنا .

حدّق (جوزيه) فى وجهه بدهشة ، وهتف :

ــ ماذا تعنى ؟

غمزه (أدهم) بيده ، مستطردًا بنفس اللهجة :

ــ اصمت الآن .. ودعنا نبتعد قليلًا ، فلست أحب أن يدرك الرجل وابنته ما سأخبرك به .

ارتبك (جوزيه) ، وحار فى أمر (أدهم) ، وراح يتطلّع إليه فى دهشة واستنكار ، و (أدهم) يقوده بعيدًا عن (برونكو) و (ماريانا) ، اللذين اكتنفتهما الدهشة بدورهما ، ثم أوقفه على بعد مناسب ، ومال نحوه يقول فى حزم :

ــ اسمع .. إننى أشعر بأنك رجل أهل للثقة ، ولذلك سأخبرك بالسرّ ، على أن نتعاون معًا .

فغر (جوزيه) فاه فى دهشة ، وهو يغمغم كالأبله :

ــ السّر ؟!

تابع (أدهم) بنفس اللهجة :

ــ الواقع أننى أعمل لحساب المخابرات الأمريكية .

هبطت العبارة على أذنى (جوزيه) كالقنبلة ، وانتزعت كل غطرسته وتعاليه ، فانهارت ملامحه ، وهو يحدّق فى وجه (أدهم) ، الذى استطرد :

ــ وهذا فى إطار التعاون بين مخابراتنا والحكومة المكسيكية ، لتحطيم أوْجُه الفساد فى (كيواوا) ، فلدينا معلومات تقول إن بعض رجال الشرطة والقضاة يعملون لحساب (توماس موران) ، وإنهم يتقاضون منه رواتب شهرية .. ونحن نخطّط لتحطيم هذه الفئة تمامًا .. هل تفهمنى ؟

هزّ (جوزيه) رأسه إيجابًا ، وهو يكاد يسقط بسكتة قلبية ، فتابع (أدهم) فى جدّية مخيفة :

ــ والواقع أننى أحتاج إلى تعاونك فى هذا الشأن ، فستراقب (توماس) لحسابنا ، وستبلغنى بأمر كل ضابط شرطة أو قاضٍ يتعامل معه ، أو يعمل لحسابه .. هل توافق ؟

أسرع (جوزيه) يهتف وهو يرتجف :

ــ بالتأكيد .

ــ اعتدل (أدهم) ، وابتسم قائلًا :

ــ حسنًا .. متى أنتظر أوّل المعلومات ؟

هتف (جوزيه) ، وهو يرفع يده بتحية عسكرية :

ــ فى أوّل فرصة .

عقد (أدهم) حاجبيه ، قائلًا فى حزم :

ــ لاتردّ التحية .. إننى هنا فى مهمّة سرّيّة .

هتف (جوزيه) مرتبكًا :

ــ بالتأكيد يا سيّدى .. بالتأكيد .

لوّح (أدهم) بكفّه ، وهو يقول :

ــ حسنًا .. هيّا .. اذهب لبدء مهمّتك على الفور .

انطلق (جوزيه) فى خطوات أقرب إلى العدْوِ ، وقفز داخل سيارته ، وانطلق بها كالصاروخ ، فاندفع (برونكو) نحو (أدهم) هاتفًا :

ــ ماذا فعلت به يا (أميجو) ؟.. لقد رأيناه يؤدى لك تحية عسكرية ، ويرتجف أمامك .. ماذا فعلت به ؟

قهقه (أدهم) ضاحكًا ، وقال :

ــ لقد أثرت ذُعره .. أرأيت كم هى بسيطة تلك الأمور يا سنيور (برونكو) .

حدّق (برونكو) فى وجهه بذهول ، ثم هتف فى غضب :

ــ أى رجل أنت ؟.. إننا نواجه خطرًا داهمًا ، وأنت تتصرّف كما لو أنها مسرحية هزلية .

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ــ العالم كله مسرحية هزلية يا سنيور (برونكو) ، والأحمق وحده من يحوّله إلى مأساة باكية .

صرخ (برونكو) :

ــ لست مستعدًا لسماع فلسفتك فى الحياة يا (أميجو) .. إنك لا تدرك ما فعلته بنا ، بعد أن أنقذنا حياتك .

قال (أدهم) فى ضيق :

ــ إننى أحاول الحفاظ على مزرعتك يا سنيور (برونكو) .

هتف (برونكو) فى مرارة :

ــ مقابل حياتى .. أليس كذلك ؟.. يبدو أنك قد نسيت أننى والد لفتاة شابة ، تحتاج إلى بقائى على قيد الحياة لرعايتها .

بقى (أدهم) صامتًا فى ضيق ، حتى اقتربت (ماريانا) ، وربّتت على كتف والدها ، مغمغمة :

ــ لقد كان (أميجو) يحاول معاونتنا يا أبى .

تمتم (برونكو) فى انهيار :

ــ ويالها من معاونة !!

كل هذا كان يحطّم فى أعماق (أدهم) الكثير .. ويُنبت الكثير ..

وفى حزم حمل كل قوته وصلابته قال :

ــ اطمئن يا سنيور (برونكو) ، لن يصيبك أو ابنتك أدنى ضرر .

غمغم (برونكو) :

ـــ هذا ما توهَّمه .

أجابه فى حزم :

ـــ بل هذا ما عزمت على فعله .

وفى خطوات صارمة ، عاد (أدهم) إلى المنزل ، وانتزع بندقية (برونكو) المعلَّقة على الحائط ، ثم اتجه نحو جواده ، و (برونكو) يتابعه صامتًا ، فهتفت (ماريانا) والجزع يملأ قلبها :

ـــ إلى أين ؟

أجابها دون أن يلتفت :

ـــ إلى الحل .

وبقفزة رائعة ، اعتلى صهوة جواده ، وجذب عِنانه ، فارتفع قائما الحصان وهو يصهل فى حماس انتقل إليه من راكبه ، ثم انطلق الرجل والجواد ..

وبدأت المعركة ..

* * *

٩ ـــ الحرب ..

« المخابرات الأمريكية ؟!.. » .

نطق (توماس) العبارة بكل الدهشة والقلق والاستنكار ، وهو يحدِّق فى وجه (جوزيه) ، الذى نقل إليه كل ما دار بينه وبين (أدهم) ، فأومأ (جوزيه) برأسه إيجابًا ، وقال وهو يرتجف :

ـــ نعم يا سنيور (توماس) .. هو نفسه أخبرنى بهذا .

عاد (توماس) يحدِّق فى وجهه بدهشة ، قبل أن يقول فى عصبيَّة :

ـــ أى هُرَاء هذا ؟.. وهل من المنطقى أن يكشف رجل مخابرات نفسه على هذا النحو ؟

أجابه (جوزيه) :

ـــ لقد قال إنه ينشد تعاونى يا سيِّدى ، وأنه هنا بالتعاون مع السلطات المكسيكية ، لكشف أمرك ، وأمر من يتعاونون معك .

بدا الاضطراب على وجه (توماس) ، وهو يقول :

— مستحيل !.. لا ريب أنه كاذب مخادع .
تدخل محاميه ، قائلًا :
— ولكن هناك احتمال صدق يا سنيور (توماس) .
هتف (توماس) ، وهو يلوّح بيده في حدّة :
— مطلقًا .. لو أنه رجل مخابرات أمريكي ، فهو يعرف أن (جوزيه) يعمل لحسابنا حتمًا ، ومن المستحيل أن يكشف له أمره هكذا .
قال المحامي :
— ربما هي مناورة مدروسة ، لمعرفة رد فعلنا إزاء الموقف .
صاح (توماس) في عصبيّة :
— مستحيل !.. إنني أرفض هذا المنطق .
قال المحامي في لهجة تنطوي على بعض الصرامة :
— معذرة يا سنيور (توماس) ، ولكن دعني أذكّرك أنك لا تملك حق الرفض ، فلست تعمل وحدك .
عقد (توماس) حاجبيه في غضب ، وهو يقول :
— ماذا تريد بالضبط ؟
أجابه المحامي ، وقد استعاد لهجته الهادئة :
— أريد أن تدرس الأمر بشيء من التعقّل والتروّي ، فعلى

الرغم من غرابة موقف (أميجو) هذا ، إلا أننا قد لاحظنا جميعًا أنه ليس مكسيكيًا ، وأن بشرته وملامحه يجعلانه أقرب إلى الأمريكيين ، أضف إلى هذا جرأته المذهلة ، وأساليبه المبتكرة ، وقدرته القتالية المتطوّرة ، التي جعلته يهزم أربعة من رجالك في ثانيتين فحسب .. كل هذا يشير إلى أنه ليس رجلًا عاديًا .. إنه رجل من نوع خاص .
وصمت لحظة ، ثم أضاف وهو يضغط حروف كلماته :
— رجل مخابرات .
امتقع وجه (توماس) لحظات ، ثم لم يلبث أن استعاد حدّته ، وهو يقول :
— أو مغامر متعجرف .
التقط المحامي سمّاعة الهاتف ، وقال وهو يضغط أزراره :
— هناك وسيلة للتأكّد .
ثم قال عبْر الهاتف :
— مرحبًا يا (أندريا) .. إنه أنا .. (كال) .. اسمعني جيّدًا .. هل لديكم أيّة أعمال خاصة ، مع السلطات المكسيكية في الوقت الحالي ؟
بدا الاهتمام على ملامحه ، وهو يستمع ، قبل أن يقول :
— مطلقًا !

ثم ابتسم في ارتياح ، وقال :

ـــ حسنًا يا (أندريا) .. بالتأكيد .. ستحصل على مكافأة جيّدة .

وأعاد سمّاعة الهاتف إلى موضعها ، وهو يقول في ابتهاج :

ـــ هذا الرجل لا ينتمي إلى المخابرات الأمريكية .

أتاه فجأة صوت ساخر ، يقول :

ـــ لو أنك سألتني مباشرةً لحصلت على الجواب نفسه أيها الوغد .

التفت الجميع إلى مصدر الصوت في دهشة تمتزج بالذعر ، وتجمّدت الدماء في عروقهم ، وهم يتطلّعون إلى (أدهم) ، الذي وقف هادئًا مبتسمًا عند النافذة ، يصوّب إليهم بندقيته ، ويستطرد في سُخرية :

ـــ عجبًا !.. هل أدهشكم وجودي إلى هذا الحدّ ؟

مضت لحظات من صمت مُفعَم بالذهول ، قبل أن يهتف (توماس) :

ـــ كيف وصلت إلى هنا ؟

أجابه (أدهم) ساخرًا :

ـــ على قدميّ .

صرخ (توماس) :

ـــ كيف اخترقت حواجز الأمن ؟

أجابه (أدهم) متهكّمًا :

ـــ أيّة حواجز أمن ؟.. لم يعترض طريقي سوى رَجُلَيْن ، حطّمت أنف أحدهما ، وأسنان الآخر ، وبعدها أوقفت التيار الكهربي ، الذي يسري في سور المزرعة ، وأتيت إلى هنا مباشرة .

هتف الحامي :

ـــ ألَمْ يعترضك أحد ؟

هزّ كتفيه قائلًا :

ـــ مطلقًا .

ثم أضاف في سُخرية :

ـــ لقد قطعت الطريق من البوّابة إلى هنا في هدوء ، على صهوة جوادي ، حاملًا بندقيتي على كتفي ، ورجالكم ينتشرون في كل مكان ، دون أن يسألني أحدهم عمّن أكون أو أفعل ، وكأني بهم يظنّونني أحدهم .

غمغم الحامي في سُخط :

ـــ هذا ما ظنّوه بالتأكيد .

ثم أضاف في غضب :

— لقد حذرتك مرارًا من الاعتماد على المرتزقة يا سنيور (توماس) .

ظلّ (توماس) يحدّق فى وجه (أدهم) وبندقيته لحظات ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وقال فى حِدّة :

— حسنًا .. ماذا تريد ؟

أجابه (أدهم) ساخرًا :

— لقد أسأت الفهم يا (توماس) .. إننى لم آتِ لآخذ ، وإنما لأعطيك .

غمغم (توماس) فى دهشة :

— تعطينى ماذا ؟

صوّب (أدهم) بندقيته إلى رأس (توماس) ، وهو يقول فى برود مفاجئ :

— ما رأيك فى رصاصة ؟

تراجع (توماس) بحركة غريزية ، وهو يقول :

— لا .

ثم لم يلبث أن شعر بالضيق مما فعل ، فاعتدل عاقدًا حاجبيه ، قائلًا فى عصبيّة شديدة :

— اسمع يا هذا .. إننى مستعد لدفع أى مبلغ تطلبه .

قال (أدهم) فى هدوء :

— إلى أى حدّ ؟

هتف فى توتّر :

— سأدفع مائة ألف دولار .. بل ربع مليون دفعة واحدة .

ابتسم (أدهم) فى سُخرية ، وقال :

— تُرى كم مزرعة يمكن شراؤها بمثل هذا المبلغ ؟

اندفع المحامى يقول فى حِدّة :

— حسنًا .. كم تريد بالضبط .

اعتدل (أدهم) ، وأجاب فى صرامة :

— مزرعة (برونكو) .

هتف (توماس) فى دهشة :

— ماذا ؟!

كرّر (أدهم) فى لهجة مخيفة :

— أريد مزرعة (برونكو) .. أريد تعهدًا كتابيًا بعدم المساس بها ، أو بمالكها .

التقت نظرات (توماس) والمحامى (كال) فى حَيرة ، ثم قال (كال) متوترًا :

— اسمع يا سنيور (أميجو) .. إننا على أتمّ استعداد لدفع

أى مبلغ يطلبه سنيور (برونكو) مقابل مزرعته .. سندفع له ثمنًا مجزيًا ، و .....

قاطعه (أدهم) فى صرامة :

ـــ لا .. إنه سيحتفظ بالمزرعة .

تبادل الاثنان نظرات التوتّر مرّة أخرى ، ثم قال (كال) :

ـــ الواقع أن هذا أمر عسير ، و .....

قاطعه (أدهم) مرّة أخرى ، فى صرامة أشدّ :

ـــ فى هذه الحالة تجدنى مضطرًا لقتلكما معًا .

صرخ (توماس) :

ـــ لا .. لن يمكننا التراجع .. أقسم لك .

بدت العبارة محيّرة لـ (أدهم) فسأله فى حزم :

ـــ لماذا ؟.. ألست صاحب الأمر هنا ؟

جفّف (توماس) عرقه فى اضطراب ، وهو يقول :

ـــ الواقع أننى لست .....

رماه المحامى بنظرة نارية ، جعلته يبتر عبارته بغتة ، ويستطرد فى توتّر :

ـــ لست مستعدًا للتراجع .

لم تخطئ عينا (أدهم) المدرّبتين ما حدث ، وجعلته غريزته يقول :

ـــ لماذا تحاول إخفاء الأمر أيها الوغد .. من الواضح أنك لست صاحب الكلمة الأخيرة فى هذا الشأن .

ارتبك (توماس) فى شدّة ، فى حين قال (كال) فى عصبيّة :

ـــ ليس لك شأن بهذا .. لقد قدّمت لك عرضًا لشراء مزرعة (برونكو) بأى سعر ، وهذا كل ما أملك تقديمه .

ابتسم (أدهم) ابتسامة مخيفة ، وهو يقول :

ـــ خطأ يا رجل .. إن لديك الكثير لتقدّمه لى .

ارتسمت على شفتى (كال) ابتسامة ارتياح مباغتة ، وهو يقول :

ـــ هكذا ؟!.. يبدو أننا لن نتفق أبدًا يا سنيور (أميجو) .

وفجأة ، التصقت فوّهة مسدس باردة بظهر (أدهم) ، وارتفع صوت صارم من خلفه يقول :

ـــ هيّا يا رجل .. ألقِ سلاحك ، ما لم ترغب فى الرحيل عن عالمنا بهذه السرعة .. هيّا .. إننى لا أتميّز بالصبر .

* * *

١٠ ـــ واشتعلت النيران ..

من السّمات التي يتميَّز بها (أدهم صبرى) كَوْنُهُ رجلًا لايحب إضاعة الوقت ، ويكره الاستسلام تمامًا ..

وعندما التصقت بظهره فُوَّهة المسدَّس ، أدرك على الفور أنه لن يستسلم ، على الرغم من أنه لم يكن قد استعاد ذاكرته ومعرفته بنفسه،وبقُدراته بعد ..

وفجأة ، ومع آخر حروف كلمات الرجل ، تحرَّك (أدهم) ..

لقد انحنى بسرعة مُذهلة ، ودار على عقبَيْه ، ثم كال للرجل لكمة كالقنبلة في معدته ، وهبَّ واقفًا ، عندما انثنى الرجل ، وحطَّم فك هذا الأخير بكعب بندقيته ، وألقاه من النافذة إلى الأرض ..

ولكن هذا كان إيذانًا باشتعال النيران ..

لقد رأى رجال (توماس) ما أصاب زميلهم ، عندما هوَى من الطابق الثاني إلى الأرض ، فاستلُّوا أسلحتهم ، واندفعوا نحو المنزل ، في نفس اللحظة التي انتزع فيها الحامي مسدَّسه من سترته ، وصرخ :

ـــ ستموت أيها اللعين .

ثم أطلق رصاص مسدَّسه نحو (أدهم) ..

وبحركة غريزية سريعة ، انحنى (أدهم) متفاديًا الرصاصة ، ثم أطلق من بندقيته رصاصة أطاحت بمسدَّس الحامي ، الذي تراجع صارخًا في رُعب :

ـــ لا .. لاتقتلني .

وفي نفس اللحظة اقتحم الحجرة سبعة من رجال (توماس) ، شاهرين أسلحتهم وغضبهم ..

وصار (أدهم) بين شِقَّي الرَّحى ..

ما يقرب من ثلاثين رجلًا يندفعون إليه من الخارج ..

وسبعة من الداخل ..

ولم يكن هناك مجال للاختيار ..

وبلاتفكير ، قفز (أدهم) داخل الحجرة ، وأطلق نيران بندقيته على رجلين ، قبل أن يقفز خلف منضدة كبيرة ، تلقَّت عنه رصاصات الخمسة الباقين ..

وصرخ (توماس) ، وهو يعدو خارج الحجرة :

ـــ اقتلوه .. اقتلوه .

ولم يكن الأمر يعني شيئًا في الواقع ، فلقد كانت الأسلحة

كلها مصوَّبة نحو (أدهم) ، الذى أطلق من بندقيته رصاصتين أخريين ، انتزعتا اثنين من قائمة خصُومه ، قبل أن يبلغ الباقون النافذة ، ويمطرونه بالرصاصات بدورهم ..

وبدت النجاة فى هذه اللحظة ، أقرب ماتكون إلى المستحيل ..

وفجأة ، صاح (أدهم)

ـــ كفى .. إننى أستسلم .

توقَّف انهمار الرصاصات بغتة ، وران صمت تام ، وكأنما حارَ الرجال فى هذا الاستسلام المباغت ، أو أنهم ينتظرون رأى زعيمهم فى هذا الشأن ..

وشقَّ (توماس) الصفوف مبتهجًا ، وهو يهتف :

ـــ ألقِ سلاحك .. ألقِ سلاحك .

ألقى (أدهم) بندقيته عَبْرَ المائدة ، التى يختفى خلفها ، ثم نهض واقفًا ، وهو يقول فى هدوء :

ـــ ها هو ذا .

انتفخت أوداج (توماس) ، وهتف وهو يتجه نحو (أدهم) :

ـــ كان هذا أفضل ماتفعله يا رجل .. لا أحد يمكنه أن يتحدَّى (توماس) .



ألقى (أدهم) بندقيته عَبْرَ المائدة ، التى يختفى خلفها ، ثم نهض واقفًا ..

ابتسم (أدهم) فى أعماقه ساخرًا ، دون أن تطفو ابتسامته على وجهه ..

لقد قدّر هذا تمامًا ..

وأدرك أن (توماس) سيُبقى عليه حيًا لو استسلم ..

لقد فهِم طبيعة (توماس) الساديَّة المتسلطة ، التى تدفعه إلى الإبقاء على أعدائه ، عندما يضمن سيطرته عليهم ، حتى يستمتع بإذلالهم أوّلًا ، قبل أن يُوردهم حتفهم ..

وفى الواقع ، كان (توماس) هو وسيلته الوحيدة للنجاة ..

ولقد ترك (توماس) يقترب منه ، وهو يتابع فى زهو :

— كان ينبغى أن تستسلم منذ البداية ، فقد كان هذا خليقًا بدفعى إلى قتلك دون ألم ، أما الآن .....

فجأة ، قفز (أدهم) من موضعه ، وأحاط عنق (توماس) بذراعه فى قوة ، ثم انتزع المسدَّس الذى يخفيه فى حزامه ، وألصقه برأس هذا الأخير ، قبل أن تبدُر من رجاله حركة واحدة ، وهتف فى صرامة :

— خطوة واحدة وأفجّر رأس زعيمكم الوغد هذا .

— شحُب وجه (توماس) ، وهتف فى رُعب :

— لا .. لاتفعلوا شيئًا .

وهتف الحامى فى غضب :

— كنت أعلم أنه داهية .

ابتسم (أدهم) فى سُخرية ، وهو يلكز (توماس) بفُوّهة المسدَّس ، قائلًا :

— هيَّا أيها الطفل المطيع ، مُرْ رجالك بإلقاء أسلحتهم ، والاستسلام فى هدوء .

تحشرج صوت (توماس) ، وهو يقول فى خنق :

— ألقوا أسلحتكم .

ألقى الرجال أسلحتهم فى سُخط ، وعيونهم تتابع (أدهم) ، الذى راح يدفع (توماس) أمامه ، قائلًا :

— هيَّا .. أفسحوا الطريق ، وأعدُّوا سيارة قوية .

هتف الحامى :

— إنك لن تبتعد كثيرًا يا رجل .

أجابه (أدهم) فى سُخرية :

— ومن قال إننى أرغب فى هذا ؟

واصل دفع (توماس) أمامه ، حتى ركب معه السيارة ، ثم ضغط دوّاسة الوقود فى قوة ، فانطلقت به السيارة مبتعدة ،

وضحكته المجلجلة ، تشقُّ السماء ، والمحامى يلوّح بقبضته غاضبًا ، هاتفًا :

ــ لن تبتعد كثيرًا .

وتابع ببصره السيارة ، حتى اختفت فى الأفق ، قبل أن يستطرد فى حَنَق :

ــ لقد صار (توماس) هذا أسخف مما يُحتمل .

واتجه إلى المنزل ، والرجال يلتفُّون حوله هاتفين :

ــ ماذا نفعل ؟.. هل نطارده ؟

أجابهم فى حدّة :

ــ لا داعى .. لقد اتخذت ما يلزم .

وفى المنزل حمل سمّاعة الهاتف ، وقال فى حدّة :

ــ أين ذهب (جوزيه) الوغد ؟.. إننى لم أره منذ بدأ القتال .

أجابه أحد الرجال :

ــ لقد فقد الوعى ، فور ظهور ذلك الشيطان .

مطَّ شفتيه ، قائلًا فى ازدراء :

ــ فقد الوعى ؟!.. يا للعار !

ثم ضغط أزرار الهاتف ، وانتظر حتى سمع صوتًا يجيبه من الطرف الآخر ، فاعتدل فى احترام ، وقال :

ــ كيف حالك يا سيّدى ؟.. إنه أنا .. (كال) .. إننى أتحدّث معك بشأن (توماس) .. نعم .. لقد سقط مرّة أخرى ، ولم يعُد يصلح لتولّى المهمّة هنا .. نعم يا سيّدى .. أنا فى انتظار أوامرك .

برقت عيناه فى شراهة عجيبة ، وهو يستمع إلى محدّثه ، ثم قال :

ــ بالتأكيد يا سيّدى .. سأبذل أقصى جهدى .. شكرًا لك .

وأعاد سمّاعة الهاتف ، وهو يلتفت إلى الرجال ، قائلًا :

ــ الآن يمكنكم الانطلاق لتتبع السيارة .

سأله أحدهم :

ــ هل نطلق النار على (أميجو) مباشرةً ؟

برقت عيناه مرّة أخرى ، وهو يقول :

ــ بل على الاثنين .. لقد أتت الأوامر الجديدة ، ولم يعُد (توماس) زعيمًا .

سأله الرجل فى دهشة :

ــ من الزعيم إذن ؟

بدت عيناه ككتلتين من اللهب ، وهو يجيب فى زهْو :

ــ أنا ..

* * *

لم يكد (أدهم) يتجاوز سلسلة جبلية قصيرة ، حتى أوقف سيارته ، وهو يلتفت إلى (توماس) ، قائلًا :

ـــ والآن يا عزيزى (توماس) ، فلنبدأ حديثنا الطويل .

ارتجف (توماس) فى رُعب ، وهو يحدّق فى فُوّهة المسدّس المصوّبة إليه ، قائلًا :

ـــ ماذا تريد منّى ؟

أجابه (أدهم) :

ـــ كل ما لديك يا (توماس) .. كل ما لديك .. أريد أن أعلم لماذا تسعى لشراء كل أراضى (كيواوا) ، ولحساب من تعمل ، ومن زعيم كل هذه اللّعبة .

شحُبَ وجه (توماس) فى شدة ، وهو يقول :

ـــ لن يمكننى أن أخبرك .. سيقتلوننى لو فعلت !

جذب (أدهم) إبرة مسدّسه ، وهو يقول فى صرامة :

ـــ وسأقتلك أنا لو لم تفعل .. ماذا تختار ؟

بكى (توماس) من شدة رُعبه ، وهو يقول :

ـــ الرّحمة !! الرّحمة !!.

ثم هتف فى مرارة :

ـــ لماذا تسعى لمعرفة كل هذا ؟.. إنه لن يفيدك شيئًا .

كان هذا السؤال مُحيّرًا لـ (أدهم) حقًا !..

لماذا يسعى إلى المعرفة ؟..

لم يكن يدرك لحظتها أن السعى وراء المعرفة هو مهنته ، وأن غريزته تقوده إلى فعل ما يفعل ، دون أن يُدرك هو نفسه لماذا ..

كان رجلًا فقد ذاكرته ..

ولكنه لم يفقد نفسه ..

وفى حزم عنيد ، أجاب :

ـــ لا شأن لك بأسبابى ، ستجيب أسئلتى فحسب .

ارتجف (توماس) فى شدّة ، وهو يقول :

ـــ لا .. أرجوك .

صاح (أدهم) فى غضب :

ـــ أجب يا رجل .. أجب وإلا فجّرت رأسك برصاصاتى .

قال (توماس) متضرّعًا :

ـــ وهل تعِدُنى بكتمان الأمر ؟.. أعنى هل يمكنك أن تخفى عنهم أننى أخبرتك ؟

أجابه فى حزم :

ـــ أعِدُك .

تنهّد (توماس) فى ارتياح ، واسترخى فى مقعده ، وكأنما انزاح حمل ثقيل عن نفسه ، وهو يقول :

ـــ حسنًا ، ما الذى تريد معرفته ؟

سأله (أدهم) :

ـــ أريد أوّلًا معرفة سبب شراء الأرض كلها .

زفر (توماس) فى قوة ، وقال :

ـــ اليورانيوم .

كرّر (أدهم) فى دهشة :

ـــ اليورانيوم ؟!

لوّح (توماس) بيده ، مشيرًا إلى الأراضى المنبسطة أمامه ، وهو يقول فى توتر :

ـــ نعم يا رجل .. اليورانيوم .. كل هذه الأرض التى تراها أمامك تسبح فوق اليورانيوم ، ذلك العنصر الذى دفع العالم إلى الأمام ، واقتحم به عصر الذّرّة .. تلك المادة التى تعدّ اللّبنة الأولى فى كل تفجير ذرّىّ .

غمغم (أدهم) فى اهتمام :

ـــ التفجير الذرّىّ يحتاج إلى البلوتونيوم يا رجل .

هزّ (توماس) كتفيه ، قائلًا :

ـــ ربّما .. لست أدرك شيئًا فى هذه التعقيدات العلمية ، ولكننى أعلم أن أرض (كيواوا) تساوى مليارات الجنيهات ، وأن من يملكها سيصبح أقوى رجل فى العالم ، والمنظمة التى أعمل لحسابها ستمتلكها عما قريب ، وستستخدم اليورانيوم الموجود لصنع أقوى الأسلحة النوويّة ، كخطوة أولى فى سبيل السيطرة على العالم أجمع .

عقد (أدهم) حاجبيه ، وهو يقول :

ـــ أيّة منظمة تلك ؟

أجابه (توماس) :

ـــ ربما لم تسمع باسمها أبدًا من قبل ، ولكنها أقوى منظمة فى العالم كله ..

منظمة (سكوربيون) ..

* * *



١١ ــ العقارب ..

دوّى الاسم فى رأس (أدهم) ، وتردّد داخله فى عنف ..

(سكوربيون) .. العقرب .. العقارب ..

بدا الاسم مألوفًا بشدة فى ذهنه ، إنه لم يجد صعوبة فى استيعاب مايرمز إليه ، إلا أنه لم يذكر أبدًا متى سمع به أو علمه ..

وفى حَيْرة ، ردّد :

ــ (سكوربيون) ؟!

أجابه (توماس) :

ــ نعم .. إنها واحدة من أقوى منظمات العالم ، فى لعبة الجاسوسية ، ولها عشرات الأفرع ، فى كل مكان فى العالم ، ومنذ عام أو يزيد ، راحت المنظمة تبنى عشرات المفاعلات الذرّيّة ، فى أماكن خفيّة من العالم ، واستقطبت مئات العلماء البارزين فى هذا المجال ، بهدف البدء فى تصنيع كمٍّ من الأسلحة النوويّة ، يكفل للمنظمة القوة المطلقة ، ويجعلها فى مصافّ القوى العظمى .

ثم لوّح بذراعه ، هاتفًا :

ــ وواجهتنا مشكلتان .. المكان والخامات .

وابتسم وكأنما نسى حقيقة موقفه ، وهو يستطرد فى زهو :

ــ وانهمك العلماء فى أبحاثهم ودراساتهم ، حتى توصّلوا إلى الحقيقة ، التى تقول إن (كيواوا) هى أفضل مكان فى العالم بالنسبة لنا ، فهى واسعة ، منبسطة ، تحيط بها سلاسل جبال قوية ، تجعل منها وكرًا مناسبًا مثاليًا ، ثم إن أرضها تحوى كمية رهيبة من اليورانيوم ، الذى نحتاج إليه .

وضرب مقعده بقبضته ، مستطردًا :

ــ وكان من الضرورى أن نمتلك (كيواوا) ، مهما كان الثمن .

قال (أدهم) :

ــ حتى ولو قتلتم أصحاب الأرض ؟

أجابه فى انفعال :

ــ حتى ولو أبدنا الحكومة المكسيكية نفسها .

والتمعت عيناه فى جنون ، وهو يهتف :

ــ إنها القوة .. ألا تفهم ؟.. القوة المطلقة .

قال (أدهم) فى غضب :

— أنتم مجانين .. حِفْنة من المجانين .
انطلق (توماس) يقهقه فى جنون ، وهو يقول :
— بل نحن الأقوى يا رجل .. نحن الأعظم .
وفجأة برقت عيناه ، وهو يشير إلى بقعة من الغبار ، تقترب من بعيد ، وقال :
— لقد وصل الرجال .
أدار (أدهم) عينيه إلى حيث أشار (توماس) ، ورأى قافلة سيارات تقترب ، فقال فى حزم :
— فليأتوا .
ثم ألصق فُوَّهة مسدسه برأس (توماس) ، مستطردًا :
— مازلت أملك زعيمهم .
توتَّر (توماس) ، وهو يقول :
— ولكن لماذا انطلقوا خلفنا ؟
قال (أدهم) ساخرًا :
— ربما يخشون فقدك يا أمير الأحلام .
عقد (توماس) حاجبيه ، ولم ينبس ببنت شفة ، وهو يتابع اقتراب قافلة السيارات ، فى حين بَقِىَ (أدهم) هادئًا ، وهو يتطلَّع إلى القافلة بدوره ، ويلصق مسدسه برأس (توماس) ، حتى اقتربت القافلة كثيرًا ، فهتف (أدهم) :

— لا تقتربوا ، وإلا فجَّرت رأس زعيمكم .
أدهشه أن رأى أحد الرجال يصوِّب إليه مدفعه ، فهتف مستطردًا :
— إننى أحذِّركم .
أما (توماس) فقد شعر بكثير من الذُّعر والقلق ، وهو يتطلَّع إلى عينى الرجل ، الذى يصوِّب المدفع ، وغمغم فى اضطراب :
— عجبًا !.. ليس من المنطقى أن ......
وفجأة ، أدرك كل شىء ..
التمعت الحقيقة فى ذهنه بومضة خاطفة ..
ربَّما لأنه يدرك حقيقة المنظمة ، التى يعمل لحسابها .
يدرك قوتها ..
وقسوتها ..
وغدرها ..
وبكل الرُّعب ، صرخ (توماس) :
— لا .. لا ..
وانطلقت رصاصة الرجل ..

واحترقت رأس (توماس) ، الذى سقط جثة هامدة على الفور ..

وهنا أدرك (أدهم) حقيقة الأمر ..

لقد سقط درعه ، وصار عليه أن يواجه جيشًا كاملًا .. وحده ..

* * *

[انتهى الجزء الأول بحمد الله ، ويليه الجزء الثانى]

(الأخطبوط)

رقم الإيداع : ٣٦١٩

المؤلف



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

٨١

الثمن في مصر
ــــ

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

الرجل الآخر

- ترى ماذا تفعل المخابرات المصرية بعد مصرع (أدهم صبرى) ؟..
- هل يمكن إعداد بديل لـ (رجل المستحيل) ؟..
- اقرأ الرواية هذه المرة بتركيز أكبر، فستواجهك حتمًا مفاجأة ..



العدد القادم : الأخطبوط